الجزء الثانى

obeikandl.com

obeikandl.com

١

رأينا فيما سبق من فصول هذا الكتاب كيف بدأ روسو حياته فى الأدب بوضع خطاب العلوم والفنون وخطاب التفاوت وكتاب المناظر . ثم رأينا كيف انقطع للأدب وللتأليف حتى ظهرت كتبه الكبرى : جولى والتربية والعقد الاجتماعى . ورأينا أخيراً كيف قضى باعتقاله وكيف فر من باريس وكيف طورد فى مختلف الممالك بسبب هذه الكتب التى أصبحت من بعد ذلك تاج مجده وموضع فخر فرنسا . فليس من بد أن نقف الآن ترجمته لنعرض على القارئ صور هذه الكتب الكبرى واحداً بعد الآخر حتى يرى مواضع عظمة هذا النابغة الشقى .

أول هذه الكتب جولى أوهلويز الجديدة . وجولى هى رواية روسو الفذة التى هزت أدب فرنسا وأدب أوربا مدى القرن التاسع عشر ، والتى لا تزال إلى الآن علماً فى أدب العالم جم الأثر . وهى كتاب ضخم تربو صحائفه على الألف ، جمع روسو بين دفتيه العواطف الهائجة والمشاعر المضطربة والأفكار الثائرة والميول الفلسفية والأبيقورية الزاهدة والنزعة لتحكيم الشعور فى العقل ووضع ذلك كله بأسلوب موسيقى بديع . فلعلنا نوفق إلى استيعاب ما حوته على نحو تتجلى معه صورة الرواية وما أحدثت من ثورة وانقلاب .

كان أول ما فكر روسو فى كتابة الخطابات التى يتكون منها القسم الأول من الهلويز فى ربيع سنة ١٧٥٦ ، بعد نشر خطابه عن عدم المساواة ، وبعد عودته من جنيف ومن نزهاته حول بحيرة ليمان ، وبعد مقامه فى الصومعة التى أقامتها له مدام دبناى . وكانت قدمه قد استقرت يومئذ فى الأدب لما صادف خطاباته من نجاح وما نالته روايته (ملاك القرية) من إعجاب . لكنه كان قد بدأ يشعر بحسد الحاسدين ويفسره بحب غيره الوقيعة به . فلما قوبل خطابه عن عدم المساواة فى جنيف بالإعراض انكمش واستسلم لميله الطبيعى للوحدة وانقطع فى صومعته مسروراً بمناجاة نفسه . وفيما هو فى وحدته ذكر جمال سويسرا الساحر الذى غاب عن ناظره مدة مقامه فى باريس والذى ملك عليه لبه واحتل كل قلبه وهاجت فيه

العواطف التى لم تخمد يوماً من الأيام حتى عاد إليه يمتع الطرف به مدى الأشهر الأربعة التى قضاها فى جنيف . وزاد الربيع فى هذه العواطف بما جمع أمام مخيلته من ذكرى الطبيعة البديعة ومن معانى الهوى والهيام . « ودفعه تذكره لمختلف أيام حياته أن يفكر فى الحال التى وصل إليها فرأى نفسه فى منحدر العمر فريسة آلام قاتلة . وخيل إليه أنه يقترب من ختام أيامه ولم يذق ذوقاً كاملا أياً من الملذات التى يريدها قلبه » فاستعاد فى ذاكرته صور من عرف من السيدات والأوانس . ووقف منهن عند صورة مدموازيل جالى وصاحبتها جرافنريد ، وجعل من الأولى ملاك هواه . . . ثم جمع فى خياله بين مناظر سويسرا والربيع المحيط به ومثال هذه الآنسة البديعة التكوين التى أسماها جولى وأسلس لعاطفته الملتهبة العنان ، وجعل يتخاطب فى نجواه مع هذا المثال ويسطر على الورق الخطابات القوية الرقيقة التى تكون الجزأين الأولين من أجزاء الرواية .

وقد زادت علاقات روسو بمدام دودتو هذه الخطابات قوة ورقة وتركت فيها من الأثر ما سبقت بنا الإشارة إليه فى الفصل السادس من هذا الكتاب .

والرواية مجموعة ضخمة من خطابات متبادلة بين عاشقين هما جولى وسان برى وبينهما وبين المتصلين بهما بسبب هذا الحب . ولذلك ظهرت الطبعة الأولى منها فى سنة ١٧٦٠ تحت عنوان (خطابات عاشقين يقطنان مدينة صغيرة فى سفح جبال الألب جمعها ونشرها جان جاك روسو) ولم تسم بالاسم المعروفة اليوم به وهو جولى أوهلويز الجديدة إلا بعد ما انتشرت ونالت من الإعجاب ما جعل بطلتها علماً على الغرام تدعى به كل عاشقة وكأنها ليلى المجنون أم جوليت روميو أو هلويز دابيلار . وهذه الأخيرة هى علم الغرام فى فرنسا من قديم الزمان . فكان طبيعياً أن يطلق على علم الغرام الجديد اسم هلوْيز الجديدة .

وحديث هلويز دابيلار بطلة أشهر الأقاصيص الغرامية شهى طويل . خلاصته أنها ولدت فى باريس سنة ١١٠١ ثمرة لغرام غير مشروع فاحتضنها خالها القس فلبير Fulbert وعلمها اللاتينية واليونانية والشعر . ثم عهد بها إلى صديقه القس أبيلار صاحب الصيت الذائع لبلاغته وطلاقة لسانه وعذب حديثه وجميل قوامه وما إلى ذلك من صفات جعلته يزهى بأنه لا يخشى أن ترفض امرأة شرف محبته . وكانت هلويز تتلقى عليه الفلسفة . وسرعان ما اتصل بينهما

غرام اشتد فى نفس الفتاة لم يشغلها عنه ما كان يتطلع إليه رفيقها من المجد . فلما حملت منه ذهب بها إلى بريتانيا وعاد فعرض على فلبير أن يتصل وإياها بزواج سرى على نحو ما كان متعارفاً فى ذلك العصر بين القسس غير المسموح لهم شرعاً بالزواج . وقد طرب فلبير لهذا الحل وبلغ منه السرور به . ولكن هلويز قاومت ورفضت خشية الإضرار بما يضمره المستقبل لمحبوبها من مجد وعظمة وقالت : « أليس من الخطيئة أن تختص امرأة لنفسها رجلا خلقته الطبيعة ليكون للناس جميعاً ، وهل من ذهن متجه إلى التأملات الفلسفية وإلى المسائل المقدسة يستطيع احتمال صياح الأطفال وثرثرة المراضع وضجة الخدم » ثم التجأت إلى دير أرجنتيل Argentueil من غير أن تنقطع المكاتبة بينها وبين أبيلار ومن غير أن ينقطعا عن التقابل وتبادل صلات الغرام ، فنشر فلبير أنهما ارتبطا بزواج سرى وأمعن فى نشر الإشاعة آملا أن يدفعهما إلى هذه الغاية . لكن هلويز أقسمت أنه كاذب . فدس فلبير على أبيلار قوماً خصوه واضطره بذلك للاختفاء فى دير سان دنيس حتى يدارى شينه . على أنه مع ذلك طلب أن تعلن هلويز دوام تعلقها به . فظن قوم أن هذا الشك من جانبه بعد ما وصل إليه من سوء الحال قد يغيرها عليه ، لكنها لم تزدد إلا إمعاناً فى حبه وفى التعلق به وصاحت قائلة : تعلق أنا وأنا التى أسبقه إلى النار أو ألحقه إليها إذ هو ألقى بنفسه فى لهيبها . وأعلنت فى الكنيسة دوام تعلقها به ، ثم تبودلت بين العاشقين فيما تلى ذلك من السنين مخاطبات وجد وهيام تبادلاها بعد ما احتمى كل منهما فى حمى الله ووهبه نفسه . وظلا على عهدهما حتى مات أبيلار فى سنة ١١٤٢ . وبقيت هى بعده اثنين وعشرين سنة كانت فيها مثال الطهارة فنالت من إكرام القديسين والبابوات ما بلغ حد الاعتراف بقداستها .

وقد كانت خطابات هلويز وأبيلار مكتوبة باللاتينية . ثم ترجمت إلى الفرنسية فخلدت ذكرهما وجعلت قبرهما القائم الآن فى مقبرة بير لاشيز مزاراً للعشاق والمغرمين .

ولما كانت رواية روسو مجموعة خطابات بين عاشقين وكانت من الإبداع بحيث تستحق من الخلود مثلما استحقت خطابات هلويز وأبيلار فقد أطلق عليها اسم هلويز الجديدة . وليس ذلك عليها بكثير بعد ما نالت أول ظهورها

من نجاح بهر أكابر الكتاب ، وبعد ما امتلكت لب شبيبة ذلك العصر وفلاسفته وسيداته ، وبعد ما بلغ من الإقبال عليها (أن لم يستطع باعة الكتب إجابة كل الطلبات وأن كان الكتاب يعطى بأجر معين بلغ عن ساعة واحدة فى أول أيام ظهوره اثنى عشر صلديا) . ولسنا نشك فى صحة هذه الرواية التى نقلها الأب بريزار Brizard مع ما نحس به فى أكثر خطابات الرواية من عذوبة ومن رقة ومن رنة موسيقية ، ومع ما نعلم من أثرها الذى تركته فيما بعد سواء بأسلوبها الخطابى المرتعش أو بعبراتها الدائمة الهملان أو بما يتجلى فيها من شعور قوى ومن تحليل نفسانى وخلقى واعتقادى دقيق ، وإذا كان فيها من مواضع الضعف أن مواقف الأشخاص الذين فيها مواقف غير عادية بل غير معقولة أحياناً فإن خصب الخيال الذى امتاز به روسو والمواقف البديعة التى لا مثال لها ووصف الطبيعة وصفاً دقيقاً لا يصدر إلا من روسو عاشق الطبيعة عشق الهيام وما إلى جانب ذلك من ملاحظات فلسفية دقيقة ، كل هذا ستر أغلاط الروائى فى ما لفقه من مواقف أشخاصه .

على أن هذه المواقف الملفقة التى سنعرضها على القارئ لم تكن بالغة هذا المبلغ من التلفيق والغرابة فى نظر روسو ، لأنها ليست إلا صوراً مختلفة من مواقف حياته . وحياته بدعة لذاتها وبدعة من أولها إلى آخرها . فهذا المتشرد البائس العائش عيش البداوة الملوث النفس من صغره والذى يعالج الفضيلة بعد الأربعين مخلصاً وجهه لها موجهاً كل نيته نحوها فتخونه أعماله ومشاعره الوقت بعد الوقت ، وهذا العاشق الطبيعة المحب للوحدة غير الموفق فى الحياة الخاضع لتصاريفها الجامع بين الاطمئنان لها والثورة عليها . وهذا الوضيع الأصل والمنبت الذى قضى قسماً من حياته خادماً ثم مربياً ثم موسيقياً ثم اتصل بالعظماء والأشراف فغبطهم على شرفهم وعظمتهم وظل طول حياته يتمسح بهم ويتلكأ حولهم مع مداومة التجنى على ألقابهم وعلى مراكزهم . وهذا البروتستانتى المنقلب إلى الكثلكة المرتد إلى البروتستانتية القوى الإيمان بين أهل الإلحاد والنفى . وهذا الإنسان المريض الإحساس المولع بالنساء الشاب القلب الهائم بمعنى الحب أكثر من هيامه بصورة خاصة منه . هذا المخلوق الغريب الجامع لكل هذه الصور والمولع بنفسه إلى حد أنه لم يعرف سواها طول حياته لا يمكنه وهو يكتب روايته إلا أن يجمع فيها بين

أغرب المواقف وأدعاها للدهشة .

ولا عجب فى ذلك والهلويز ليست إلا صورة من صور حياة روسو فى الواقع ومن حياته أيضاً فى الأمل والحلم . لكن روسو لم يكن قديراً أن يجمع فى شخص واحد من أشخاص روايته ما اجتمع فى نفسه وخلقه وعقله من متناقضات فوزعها بينها جميعاً . كما نشر كثيراً من آرائه فى الحب وفى الفضيلة والتربية والزواج وحياة الأسرة وغير ذلك على صفحات خطاباتهم المختلفة .

* * *

ولكى نحلل رواية تزيد صفحاتها على الألف يجمل بنا أن نسير مع المؤلف رويداً رويداً حتى لا تضطرب أمام ذهن القارئ صورة من بدائع ما أنبت أدب القرن الثامن عشر .

أكثر أشخاص رواية روسو خطراً اثنان : سان برى وجولى Saint Preuxet Julie' . وسان برى شاب من سواد الشعب أوتى حظاً من الذكاء والعلم وأوتى حظاً من العواطف والمشاعر أكبر وأعظم . وهو شديد الولع بالطبيعة وبمناظرها شديد الرغبة عن المدن ومخاطرها قليل الاعتبار للألقاب الموروثة ميال للفضيلة نزاع بطبعه إلى الخير . فهو لذلك صورة من روسو على ما يحب روسو أن يكون . وهو لذلك أكثر ترفعاً عن مؤاناة النقائص التى تلوثت بها نفس روسو من أيام كان خادماً وإبان كان مشرداً طريداً . وقد دعته البارونة دتـــانج d'Etange ليهذب ابنتها جولى . وكانت يومئذ فى الثامنة عشرة من عمرها وعلى جانب غير قليل من الجمال والرزانة ، لكن رقتها وضعفها كانا أرجح من رزانتها ومن جمالها . فلما اتصل ما بينها وبين سان برى أسرع الحب إلى نفسيهما . فكتماه زمناً واستمرا فى دراستهما ، ولم يكن فى مقدور الأستاذ الذى خلقه روسو على صورته أن يفاتح تلميذته نجوى الحب لا مفاجأة ولا بتحضير دقيق ينتهى بملكها . ولم تكن هى كما كانت مدام دلارناج التى جرت روسو جرًّا إليها . لذلك حرر سان برى خطابين طويلين بث فيهما لمحبوبته لاعج شوقه ومحرق غرامه . وفعل الخطابان فى نفس الفتاة لكنها لم تجبه عنهما بشىء فأرسل إليها بثالث ذكر لها فيه حبهما المتبادل على غير جدوى وأشار فى ختامه إلى ضرورة ابتعاده عنها حتى تبقى فى سكونها وطمأنينتها ، فأجابته مستبقية إياه قائلة له « إن القلب الفاضل يعرف كيف يتغلب

على هواه أو أن يكتمه » . فلما ألح فى ضرورة الارتحال أجابته أن رجلا يدعى ما ادعاه هو من الجمع بين الفضيلة والحب لا يكتفى بالارتحال بل يقوم بعمل أكبر من ذلك وأجدر . لكنها ما لبثت أن علمت منه تصميمه على إطاعة أمرها بإراحة نفسه من عناء الوجود حتى استصرخته ألا يفعل وأفضت له بكل ما يحويه قلبها من حب وضعف ، وتبودلت بينهما بعد ذلك خطابات عدة جامعة إلى جانب كل معانى العشق والوجد والجوى والهوى العذرى بعض أفكار فى التعليم وفى التاريخ وفى قواعد الخلق . ثم انتشر الحب من قلبيهما إلى مجموع وجودهما وشعرا بأن هذه المكاتبات الطويلة العقيمة لا تغنى وحدها من الحب شيئا ، فتواعدا على التلاقى جوف الليل فى كوسج تحيطه الأشجار . وشرطت جولى أن تكون معها فى هذا الملتقى بنت عمها كلير كى تحارب بها انفجارات الحب من جانبها ومن جانب محبها . وتلاقيا ومعهما كلير ثم كتب سان برى لها يصف هذه اللقيا قال :

« ولما دخلت الكوسج اقتربت ابنة عمك منى وطلبت إلى بنوع من الرجاء الظريف أن أقبلها . فقبلت تلك الصديقة الساحرة وإن لم أفهم سر طلبها ! وبرغم ما هى عليه من الرقة والظرف فإنى أدركت فى تلك الساعة أن الإحساس ليس إلا ما يريد القلب أن يكون . لكن ماذا عرانى بعد لحظة من ذلك حينما شعرت . . أن يدى تضطرب . . برعشة رقيقة . . بفمك الدرى . . فم جولى . . يلتقى بفمى وينضغط عليه ، وبجسمى بين ذراعيك ! كلا ليست نار السماء أقوى ولا أسرع من تلك النار التى أحرقتنى . فقد اجتمعت كل أجزاء وجودى لترشف هذا الملمس العذب ، وتطاير اللهب مع تنهداتنا من شفاهنا المحترقة وهمد قلبى تحت حمل اللذة . . ثم رأيتك فجأة وقد ذهب لونك وأقفلت عيناك الجميلتان واستندت إلى ابنة عمك ثم سقطت مهدودة ذاهلة أن أطفأ الوجل المسرة . فكان هنائى بذلك برقاً سريع السنا » .

لكن هذه القبلة الحارة المحرقة هزت وجود الفتاة هزًّا عنيفاً وأرتها رأى العين مبلغ ضعفها ومبلغ اندفاعها نحو الخطر . فكتبت إلى صديقها تأمره بالابتعاد عنها وبالسفر ، وأرسلت له مبلغاً من المال فرده ، فغضبت لتلك السخافة وضاعفت المبلغ وهددته إن هو رفضه . . فقبله وبارح الديار من غير أن يراها . واستمرت

المكاتبات بينهما ما بين حب ومعاضبة وعتاب حتى إذا حضر البارون ديتانج ورأى ما أفادته فتاته من العلم والحكمة سأل عن معلمها . فلما ذكر أنه رآه من قبل ، وأن فى نفسه منه أثرا غير سيئ ، سأل عن ثروته فقيل له إنها تافهة . وعن مولده فقيل له إنه طيب . فوقعت هذه الكلمة موقعا غريبا من نفس هذا الشريف المولد حتى اضطر أن يسأل عما يدفع إليه من أجر . وقد ساءه جد المساءة أن علم أنه لم يقبل أجرا . واعتبر فى تفضل رجل من العامة على شريف مثله مسبة ، وأمر أن يعرض على المعلم أجر معين إن رفضه شكر عما قدم .

أما سان برى فكان يقطع وقته فى اعتلاء الجبال وجوب الوديان والاستمتاع بكل بدائع الطبيعة . ويصف ذلك فى خطاباته إلى جولى ويتغنى بجماله على نغم موسيقى عذب رنان كانت توقعه ريشة روسو على القرطاس فتستخرج منه معانى وأصواتاً وصوراً ليست أقل إبداعاً من صور روفائيل ولا من أنغام بيتهوفن ولا من أغنيات عذارى البحار . فلما وصلته كلمة جولى تخبره بما كان من والدها ومن تحتيمه دفع الأجر إلى معلمها رد عليها يقول :

« إننى أميز فيما يسمونه الشرف بين ما يستفاد من الرأى العام وما يرجع إلى احترام الإنسان نفسه . فأما الأول فجماع خرافات سخيفة أكثر تقلباً من الموج المضطرب ، وأما الثانى فقائم على أساس من حقائق قواعد الخلق الثابتة . وإذا صح أن يفيد تشريف الناس لنا فهو لن يصل إلى الروح ولن يكون له أى أثر على سعادتنا الحقة . وعلى العكس من ذلك أمر الشرف الصحيح الذى هو روح السعادة . فليس يجد الإنسان عاطفة الرضا الداخلى الدائم التى تمتاز دون سواها بجعل المخلوق المفكر سعيدا إلا فى نفسه . فلنطبق هذه المبادئ على مسألتك يا جولى لتنحل عقدتها .

« لقد تظهر تلك المهنة ، مهنة إقامتى نفسى أستاذ فلسفة ، واقتضائى النقد مقابل تعليم الحكمة دنيئة فى نظر الناس . وقد أقر أن فيها شيئاً من السخف لذاتها . على أنه ليس من بين الناس من يستطيع إقامة أوده بنفسه ، ولا سبيل إلى ذلك أقرب له من الاستفادة من عمله . لذا وجب أن نضع هذا الازدراء فى صف أشد الخرافات خطرا وألا نكون من السخف بحيث نضحى هناءنا بسبب مثل هذا الرأى الأخرق » .

لكنه رأى أن الشرف الصحيح يمنع عليه اقتضاء النقد من الأب واستغلال قلب البنت التي تحبه ويحبها . فذكر ذلك صريحاً فى كتابه وأشار إلى أن توافق قلبيهما وتقارب سنيهما واندفاع كل منهما نحو صاحبه وخسة كل علاقة بينهما غير مشروعة تجعله أميل للنظر فى وسيلة أخرى لاجتماعهما . وليست هذه الوسيلة إلا الزواج .

غير أن البارون ديتانج كان من أشد الناس تشبثاً بمبدأ الكفاءة فى الزواج ، فلن يزوج ابنته من أفاق كسان برى ، هو مهما بلغ من علم وحذق وفضيلة لن يعدو أن يكون من عامة الناس ومن سواد الشعب . وهو فوق هذا فقير معدم . وقد أدخل هذا الرأى إلى قلب جولى من الهم ما أمرضها حتى استدعت صاحبها لتراه خشية أن يحل أجلها وهو عنها بعيد .

وقد أعانت كلير Claire d'Orbe صديقتها واستدعت سان برى وألحت فى استعجاله ، ثم بلغها أن مربيتها فى خطر الموت فتركت فڤى Vevey وسافرت . وبعد زمن من سفرها جاء سان برى وتقابل خفية مع جولى وحرضها على الفرار وإياه من البيت الأبوى ، فرفضت مخافة ما يصيب ذلك أبويها من سوء وعار ، لكنها خشيت أن تبث هذا الرفض صدر محب وامق ، فاستسلمت له وارتمت فى أحضانه وزاد به وبها الوجد فى بعض سويعات سكرة الحب ففقدت عفتها .

* * *

كثير من الروايات والقصص التى كتبت بعد الهلويز والتى أخذت عنها غرام المعلم بتلميذته الشريفة تنتهى بعد هذا الحادث بحادث حاسم كالانتحار أو القتل أو ما إليهما . وبعضها يترك للحب عنانه ويدفع بالفتاة التى سقطت فى سبيل الغواية فتهجر بيت أهلها بل المدينة التى هم فيها لتوارى عارها ولتمتع كل شهواتها وملاذها غير حاسبة للنتائج حسابا . ولقد كان ذلك فى مقدور روسو لو أنه أراد . لكنه رأى أن تركه سان برى وهو صورة نفسه فى هذه الحال يستنزل عليه سخط الساخطين ولعنات اللاعنين . ومهما كان من حق كل ساخط أن يلعن الغواية فقد كان ذلك عزيزاً على روسو فلم يطق احتماله .

لهذا ظل سان برى زمناً يقابل ويكاتب جولى بعد ضياع طهرها وعفافها حتى حملت منه وحتى اضطرت لإجهاض نفسها ، وفى هذه الحال المزرية

وفى هذا المركز المخجل تظل الفتاة الشريفة فى تجارتها الدنيئة مع معلمها من غير خجل ولا استحياء . ولو أن العاشقين شعرا بما فى ذلك من مخالفة للمبادئ التى نادى بها سان برى من قبل والتى اعتبرها أساسا للفضيلة الصحيحة وللشرف الحق ، وسترا عارهما وفسادهما لهان الأمر . ولو أنهما بدلا مبادئهما وذهبا إلى أن الزواج نظام لا محل له وأظهرا من الاقتناع بذلك ما يعذرهما عن مؤاتاة الرذيلة التى أقرا من قبل أنها الرذيلة لصح أن يكون لهما فى ذلك بعض العذر . لكن خطاباتهما الطويلة ظلت مملوءة باسم الطهر والفضيلة والسعادة القائمة على الحكمة الصحيحة ، وظلت مملوءة بها على طريقة روسو الخطابية التى تعدت فى جولى حدود كل ما رأى القارئ فى كتبه السابقة وكل ما سيرى فى كتبه اللاحقة . ولم تكن جولى ولا تزال فتاة لم تتعد بعد مبتدأ الشباب لتخجل فى كتبها من ذكر أعمالها بوقاحة متبجحة لا يمكن أن يتصورها الإنسان تحت ريشة غير ريشة روسو وفى قرن غير القرن الثامن عشر ، ذلك القرن الذى اضطربت فيه كل العواطف وأصبح حظها من الألفاظ يعادل مكانها من النفوس أضعافاً مضاعفة .

فليس من شك فى أن الحب الذى كان معروفاً قبل ذلك العصر كان حباً يملأ القلب وقلماً يفيض على اللسان . وكان مظهراً من مظاهر ضعف النفس الإنسانية يجمل بها ستره . وكانت العذراء التى تحب ترى عفافها فوق حبها كما كانت المرأة المتزوجة تضع واجب الزوجية فوق عواطفها الشخصية . لكن القرن الثامن عشر ظهر بمظهر فى الحب جديد . فكان حبه كثير الكلام أشد تعلقاً باللسان منه بالقلب ، وكان يعتبر وسيلة للذة لا غاية سامية لذاتها . على أن ثرثرته لم تبلغ فى العصر كله ما بلغته ثرثرة عاشق روسو . فما نحسب عبارة من عبارات الحب ولا لفظاً من ألفاظه ولا صورة له ولا حساً به ، ولا توهماً إياه ، ولا خيالا منه إلا وصفه روسو فى خطابات روايته بإسهاب واستيعاب . ولعل ما رأى القارئ فيما مر من صور الحب ومن أزواج كانوا أكبر أصدقاء عشاق زوجاتهم ومن الزوجات المغرمات برفيقات أزواجهن يكفى ليعطيه بعضاً من الصور التى مرت بوهم مؤلف الهلويز فى أثناء كتابته إياها .

إنما كان إسهاب روسو غالب الأمر إبداعاً لا إبداع بعده . كم صورة من صوره تهز القلب وتستهوى النفس . اسمعه مثلا فى خطاب من سان برى

إلى جولى وهما فى حال المخالة وهو يقول لها : ! إيه يا ماكرة ! أكذلك تكون الحيطة التى وعدتنى باتخاذها . وهل يكون كذلك رفقك بى وإخفاؤك ملامح جمالك ؟ ألا كم تخلفين عهودك ؟ وأول ما كان من ذلك زينتك . فإنك لم تتزيني قط وأنت تعلمين أنك أشد ما تكونين فى هذه الحال خطراً ثم مظهرك الرقيق المتواضع الكفيل باستظهار كل ما فيك من معانى الجمال . وكلامك القليل الموزون الآخذ بنصيب من الظرف أكثر من عادته حتى زادنا التفاتاً وجعل الآذان والقلب يطيران يستبقان كل كلمة . وتلك الأغنية التى كنت توقعينها بصوت منخفض يزيد غناءك رقة حتى يصل وهو غناء فرنسى لينال إعجاب ميلورد ادوار My Lord Eduard . ونظرتك المخجولة وعيونك الناعسة الطرف يبعثن أحياناً من خاطف البرق ما يثير عندى قلقاً لا سبيل إلى دفعه . وبالجملة ذلك الروح الساحر الذى لا تعبر الألفاظ عنه والذى نشرته حولك فخلبت به الألباب من غير أن تبدى أى عناية به أو تفكير فيه ، ولست أدرى أى شيء تصنعين لتكونى كذلك . ولكن إذا كانت تلك هى سبيلك لتكونى أقل ما تكونين جمالا فإنى نذيرك بأن ما عندك من ذلك يزيد عما يحفظ على المحيطين بك من الحكماء حكمتهم » .

وميلورد إدوارد إنجليزى شريف عريض الجاه والمال . وقد عرف سان يرى ثم اتصل ببيت ديتانج ووقف على ما بين سان يرى وجولى من عاطفة . وعطف عليهما العطف كله . لذلك جعله روسو واسطة الخير لهما فى كل ظروف الرواية ، وبعد ما أرضى خياله بأن مكن لبطله من (الوجود فى قصر تحفه فيه عناية السيد والسيدة وتصبح البنية فيه رفيقته والابن صديقه والمجاورون فى حمايته) مما لم يتح له هو فى حياته . وبعد ما جعل من ضعف جولى ضعفاً يزيد على المعقول وسيلة لإمتاع شهوات بطل روايته (بذوق الملذات التى يريدها قلبه) . فكر فيما يكون من شأن العاشقين وانتهى بأن جعل ميلورد إدوارد وسيطاً لهما عند البارون ديتانج لعقد زواجهما . وقبل ميلورد ما طلب منه وخاطب البارون فى الأمر وشرح له فضائل سان يرى وانتهى بقوله : فإن أنت فضلت العقل على الوهم وكنت أكثر حبًّا لابنتك منك لألقابك فإنك لابد معطيها إياه .

هنا احتدم غيظ الأب الذى اعتبر الطلب سخيفاً غير معقول وصاح :

أيرد ذلك بخاطر رجل شريف مثلك يا ميلورد . أتقبل لشريف من أسرة عريقة وإن قل خطره أن يطفئ اسمه إذ ينزل به فيخلطه باسم أفاق لا مأوى له ولا عمدة فى عيشه إلا على المصادفة . وهنا يمتع روسو نفسه على لسان ميلورد بإعلاء شأن الأفاقين الذين كانوا أصل الشرف والنبل والفضل وبالطعن على العائلات التى تسمى شريفة . أجل . « فماذا صنعت لمجد وطنها أو لسعادة بنى الإنسان ؟ وماذا أنتجت فى أكثر البلاد التى سطع نجمها فيها إلا أن ظهرت عدوة للقوانين وللحرية وإلا أن أعانت الاستبداد وظلم الشعوب ؟ فكيف بك تكبر أمر نظام قاتل للفضائل وللإنسانية . ثم يفخر أهله بقيام العبودية ويستجيون أن يكونوا رجالا ؟ اذكر تاريخ قومك ثم خبرنى هل للأشراف زملاءك من فضل فيه ؟ فأيهم حرر وكم ؟ وهل كان فرست وتل وستوفا شر من طائفة الأشراف ؟ فما هو إذن ذلك المجد الأخرق الذى تملأون الجو باسمه صياحاً ؟ أهو فى خدمة رجل وفى العيش على نفقة الحكومة » .

على أن هذه الحجج ومثلها وكل ما فى خطاب التفاوت وخطاب المناظر من الطعن على نظام الأشراف ومن إعلاء شأن الإنسانية لذاتها ومن اعتبار الخلق والفضيلة والعقل والحكمة أساس كل نبل وشرف لم تزعزع شيئاً من عقيدة البارون الذى نشأ فى أفكار طائفته العتيقة الخاطئة . بل لقد اعتبر وساطة ميلورد إهانة له وذهب لتوه إلى ابنته وإلى أمها فكبتهما بالمهانة وبالازدراء . ثم أبدى إلى الفتاة أنه لن يزوجها إلا من صديقه الشريف فولمار ولو اجتمعت لدى سان پرى خزائن إنجلترا . ومنعها من مقابلة عاشقها ومن مخاطبته ما عاشت .

بعد ذلك توسطت كلير فى الأمر وأعانها خطيبها المسيو دورب وأمكن لها أن تقنع سان پرى بضرورة مغادرة الديار فغادرها هو وميلورد إدوارد قاصدين باريس .

* * *

إلى هنا ينتهى الجزء الأول من الرواية . وقد افتتح روسو الجزء الثانى بهذه الملاحظة (لا أظن نفسى فى حاجة لأن ألفت النظر إلى أن العاشقين وقد افترقا فى هذا الجزء الثانى والجزء الذى يليه كانا يخلطان ويخبطان أن ضل صوابهما) . ولهذا عنى ميلورد إدوارد فى أثناء السياحة بالترويح عن نفس سان پرى ما استطاع .

لكنه رأى أن عنايته ليست كافية كل الكفاية ، كما أن رفض البارون وساطته ترك أثراً غير حسن فى نفسه . فكتب إلى جولى يقول لها : « لى فى دوقية يورك مزرعة واسعة الأرجاء كانت مقام آبائى زمناً طويلاً . والقصر الذى هناك ممتع طيب وإن يك قديماً ، والضواحى على وحدتها بهجة تجمع مختلف المناظر . ونهر الأوز الذى يجرى عند منتهى الحديقة يقدم للعين منظراً بديعاً ولمنتوجات الزراعة مصرفاً سهلاً . وجنى الأرض كاف لإقامة أود أستاذك ويمكن أن يتضاعف بعنايته . وليس إلى الخرافات على هذه البلاد الطيبة من سبيل . بل يحتفظ أهلها بالعوائد البسيطة التى ورثوها من العُصُر الأولى . فهذه المزرعة لك يا جولى إذا نزلت إلى الإقامة فيها معه . . ولقد كان معقولاً أن تسمع جولى لميلورد ادوارد وتترك بيت أهلها وتندفع وراء حبها وتكون بذلك مثلاً من أمثال المخاطرة فى الحب . لكن روسو كان على طعنه على الكبراء والأشراف شديد الاحترام لهم كما كان على نيله منهم وانتقاصه شرفهم شديد الشعور بفضلهم عليه . لذلك كبر عليه أن يخاطر بابنة البارون هذه المخاطرة التى تخرج بها من سبيل الحب المنطقى المفكر المقدر قيمة كل التضحيات لتدفع بها فى سبيل لم يكن لروسو أن يعرف مسالكها . ولذلك قعدت حكمة الفتاة وضعفها بها عن معالجة هذه السبيل وفضلت البقاء فى بيت أبويها قاطعة على نفسها عهدًا ألا تتزوج من سان پرى إلا عن رضا من أبيها وألا تتزوج من غيره إلا بموافقته ورضاه .

وأقام سان پرى فى باريس وجعل يخاطب صاحبته منها ويصف لها ما يراه من أخلاق أهل المدينة وما هم عليه من طيبة ورقة وظرف يكاد يبلغ النفاق ، وما تمتاز به الباريسيات من حسن اختيار فى الملبس وقصد فى التزين بالحلى وميل للمناظر كى يراهن الناس ،وتحبب إلى الرجال وإغضاء عن الفضائل المتعارفة وما إلى ذلك مما رأى القارئ من مثله فيما مر من علاقات روسو وغيره بالنساء . وفى هذه الأثناء تزوجت كلير من المسيو دورب فاضطرت جولى لسحب خطابات سان پرى من عندها بعد ما كانت لديها فى حرز حريز . ثم لم يمض زمن طويل حتى وقعت يد البارونة على هذه الخطابات فكان ذلك سبباً فى مرضها مرضاً ألزمها الفراش وانتهى بأن قضى على حياتها .

كان لوفاة البارونة من الأثر على جولى أن كادت تنسى سان پرى بل وأن

كادت تكرهه لأنه كان سبب مصابها وسبب عارها . واشتد بها الحزن ولم تلق أمامها إلا صورة المتوفاة نسيت فيها نفسها النسيان كله . لكنها ولما تتم مراسم الحزن ومواعيده . – وللحزن كما للفرح مراسم عند الناس ومواعيد – حتى جاءها أبوها يخبرها بضرورة زواجها من فولمار . وبعد مناقشة وأخذ ورد ضعفت أمام رجاء أبيها ، وازدادت ضعفاً حينما علمت أن فولمار الغنى أصبح فقيراً وأنه لا يزال على عهده مع أبيها فى طلب يدها لم يثنه الجدرى الذى ترك بعض الأثر فى وجهها ، فكتبت إلى حبيبها تسترجعه وعدها وحريتها ولم يتردد هو فى إجابة مطلبها .

« وحسبت أن اليوم الذى أنتزع فيه منك انتزاعاً أخيراً هو آخر أيامى حتى لقد هان على أن أرى كفنى وعدة قبرى ولا أرى ما أعد لزواجى . وكنت كلما اقتربت من اللحظة الحاسمة ازددت عجزاً عن أن أنزع حبى الأول من قلبى . ولم أبلغ من جهودى لإطفائه إلا أن ازداد شدة وأواراً . ثم هدتنى هذه الجهود الضائعة فى الهواء حتى إذا كانت اللحظة التى وطنت نفسى فيها كى أقسم لغيرك بدائم الولاء والإخلاص إذ أقسم لك قلبى بدوام حبه ومودته . وسيق بى إلى الهيكل وكأنى ضحية خبيثة لا تذر مكان تضحيتها إلا رجساً ونجساً .

« وساعة دخلت الكنيسة عرتنى هزة لم أشعر من قبل بها أبداً فى هذا المكان البسيط العظيم المملوء بمجد من يخضع الكل له فيه . فقد أخذ بروحى فزع لا أقدر على تصوره ، وسرت إلى رعشة خوف هزتنى وكاد يغمى علىّ معها ، ولم أستطع التقدم إلى المنبر إلا بكل مشقة ، وزاد بى الاضطراب فى أثناء الحفل حتى زادنى ما بقى لى من قدرة على تمييز الأشياء فزعاً منها . . وقد كان من أثر ظلمة المكان وصمت الحضور العميق ومظهرهم المتواضع ووجود زمرة أهلى بينهم وموقف والدى المحترم موقفاً مهوباً – كان من أثر ذلك كله أن نشر على ما سيكون معنى المهابة ، واستفز عندى التنبه والاحترام ، وصار مجرد التفكير فى الذنب كافياً ليرعشنى ويرعدنى . وخيل إلىّ أنى أرى رسول القدر وأستمع إلى كلماته ممثلة مجسمة حينما نطق القسيس بالصيغة المقدسة برزانة ووقار ، وبدت لى طهارة الزواج وكرامته وقداسته مما وصف فى الكتاب المقدس بقوة ووضوح ، وآمنت بواجبات الزوجية الطاهرة الرفيعة وبما لها من خطر فى أمر السعادة والنظام والسلام وبقاء نوع الإنسان ، ورأيت الأثر الذى يترتب على القيام بتلك الواجبات وكان من أثر ذلك

كله أن شعرت فجأة بثورة قامت فى داخل نفسى وبقوة مجهولة تولت لساعتها إصلاح ما اضطرب من عواطفى وأخذت تردها إلى حمى قانون الطبيعة والواجب . فقلت فى نفسى . . إن العين الخالدة المطلعة على كل شىء تقرأ الآن فى خبايا قلبى وتقارن مستور إرادتى بما سيجيب به فمى ، وإن السماء والأرض لشهيدتان على ما سآخذه الآن على نفسى من عهد مقدس ، شهيدتان من بعد على إخلاص فى الوفاء به ، فهل يستطيع من يعبث بأول الحقوق أن يحترم بين الناس حقّا ؟ .

وتنطلق جولى فى هذا الخطاب البديع الذى تصف فيه تطور نفسها من يوم حبها إلى يوم زواجها تحلل نفسها تحليلاً دقيقا وتستظهر كل معنى من المعانى التى دارت بخاطرها فى أثناء حفل الزواج وبعده وتبين كيف استنجدت القدر ليعينها على محبة الزوج الذى وهبها القدر إياه . . ثم تنتقل إلى وجوب الاحتماء فى حمى الدين بإمعان وإخلاص . وهنا تظهر لأول مرة فكرة روسو فى الدين واضحة جلية . فقد تقلب ما بين البروتستانتية والكثلكة وعاش فى وسط كله الإلحاد والنفى ومع ذلك ظل مخلصاً للفكرة الإلهية مؤمنا بها تمام الإيمان ، ولعل هذه العبارة من جولى إلى صديقها أبلغ ما يعبر عن رأيه فى هذا الباب :

« لم أك يوما من الأيام على غير دين أبدا . لكنى أفضل الشخص ولا دين له على من يكون ذا دين ظاهر لا يتصل بالقلب ثم يطمئن له الضمير ويقنع منه بصور تجعله معتقدا فى الله بعض يومه ناسيا كل تفكير فيه بقية الوقت . . .

« اعبد الكائن الخالد أيها الصديق الكريم الحكيم . وإنك إذن لمهلك فى رجع النفس ذلك الطيف من العقل كل ماله من الوجود مظهر كاذب وهو يفر فرار الظل أمام الحقيقة الثابته . فليس موجود إلا من أمر الله . هو الذى يجعل للعدل غرضاً وللحق أساساً ولهذه الحياة القصيرة تقضى فى مرضاته ثمنا ، وهو الذى يصيح بالجناة أجرموا خفية أنهم فى قبضة يده . وهو الذى يقول للعادل نسيه الناس إنى على فضائلك لشهيد : . . هو مثال الكمال بهيولته الباقية . ومن هذا المثال تحمل نفوسنا صورة إن غشت عليها الشهوات فإن دقائقها مرتبطة بالهيولة الباقية تتمثل أمام عقلنا وتعينه على رد ما غيره الخلط والكذب . وإنى ليخال لى أن حسن الذوق كاف لمعرفة كل هذه الأمور . فما كان مرتبطاً بفكرة هذه الهيولة ولا يستطاع فصله عنها فمن الله . أما ما سوى ذلك فهو من عمل الناس . .

وبإطالة التأمل فى هذا المثال الأقدس تطهر الروح وترقى وتعرف كيف تزدرى وضيع الميول وترتفع عن دنىء النزعات. وكل قلب دخلت إليه هذه الحقائق العليا يأبى على نفسه ما عند الناس من تافه الشهوات ويصل من رفعته السامية إلى التقزز من كبريائهم ويبعده التأمل عن وضيع نزعاتهم . ولو أن الكائن العظيم الذى شغل به لم يوجد لحسُن أن يشغل على الرغم من ذلك به من غير انقطاع ليكون أكثر امتلاكا لنفسه وأشد قوة وأكثر سعادة وأعظم حكمة .

وهذا التعبير الذى خطته يد جولى هو الذى سيكرره روسو بعد ذلك فى هذه الرواية وفى أميل وفى اعترافاته وبقية كتبه . وهو واضح فى بيان أن روسو كان بروتستانتيًّا حرًّا . وكان كما قال فاجيه « فيلسوفاً مؤمناً بالله تربى بروتستانتيًّا وعشق البحث والاجتهاد بروح مستقلة تمام الاستقلال ، واحتفظ من تربيته بالميل إلى الدعوة للخلق الفاضل وبكراهيته الديانة الكاثوليكية والتقزز منها » .

وانتهت مدام فولمار بعد إرشادها صديقها سبيل الحق وبعد دعوتها إياه إلى الفضيلة الصحيحة الخالية من شوائب الشهوات بإعلان انقطاع ما بينهما وبأمره أن يكتب إن شاء أن يكتب إلى مدام دورب ابنة عمها .

ولما وصل هذا الكتاب إلى سان پرى جن صوابه وفقدت حياته فى نظره كل معنى ولم يبق لها أية غاية . ففكر فى الخلاص منها وكتب إلى صديقه ميلورد ادوارد خطابا طويلا يفند فيه بهدوء وطمأنينة حجج الذين يزعمون الانتحار جبناً وخروجاً على أمر الله ، لكن كلمة من صديقه كفت لتردعه عن عزمه . ثم ظل بعد ذلك أمدا طويلا فى لندرة . ظل حتى علم أن جولى أصبحت أمًّا . فازداد همًّا وكآبة لم ينجه منهما إلا أن سافر على مركب إنجليزية من مواعين أسطول تجارى طفق يجوب البحار والأقطار مدى ثلاث سنوات متتالية .

* * *

هذا الجزء الثالث من أجزاء الهلويز بديع بدعاً خاصًّا فى أسلوبه ، وفى تفكيره ومنطقه . وهو كما رأى القارئ انتقال من حكم العاطفة المطلق إلى النظر بعين البصيرة والعقل فى وسائل الحياة وواجباتها . فقد انتقلت جولى ديتانج - وهى الفتاة الضعيفة المستسلمة لهواجس الحب المسلمة نفسها إلى كل دوافعه - وهى المعتبرة أن قانون الحب هو قانون الطبيعة والفضيلة والحياة - وهى التى نسيت

شرف مولدها ونسيت الفوارق الاجتماعية ونزلت عن تقاليد وسطها وامتيازاته لتختلط بشاب من سواد الشعب ولتدخل فى حوزته وملكه – انتقلت فجأة ساعة وجودها فى الكنيسة لترى فى الزواج لا فى الحب عماد السعاة ولتقدر كل ما كانت فيه فى أثناء حبها من عماية وضلال ولتستنجد القدر أن يوفق بينها وبين زوجها ويبت علاقتها بمحبوبها القديم .

تلك حركة نفسية قوية يدهش صدورها من جولى الضعيفة النفس المهملة التربية ، لكنها حركة تدل على دقة ملاحظة روسو فى هذا الظرف بنوع خاص . فإن أسرع النفوس للانتقالات الفجائية هى النفوس الضعيفة . ذلك بأن ضعفها يقعد بها عن ملابسة الوسط والتحكم فيه ، فتخضع لسلطان فكرة أو عاطفة أو فرد حتى تشعر بنفسها وقد جعلها ضعفها سخرية وهزؤا وحتى ألبسها عاراً تهون معه الحياة . هنالك تطفر فجأة بدافع الاحتفاظ الحيوى إلى مركز جديد يحميها من عارها ومن سخرية الناس بها .

ولو لم يقف البارون ديتانج فى وجه ابنته بالشدة التى وقف بها . ثم لو لم تشعر بعد ما أتت على حياة أمها وكسرت قلب أبيها بأنها على شفى الإثم والخزى والعار ، إذن لما تركت الكنيسة فى نفسها هذا الأثر . ولو أنها كانت ذات نفس قوية وإرادة صلبة وشخصية ذاتية لما اهتزت نفسها هذه الاهتزازات التى رآها القارئ بل لقررت نوعاً من الحياة يتفق مع قوة ذاتيتها وصلابة إرادتها ثم هى إما واجهت من زوجها خصماً تناصبه الكفاح حياتها ، أو ضعيفاً تخضعه لها ، أو داهية يلعب بالحياة وبها ، وفى الحالين الأخريين تكون هى السعيدة .

ودقة ملاحظة روسو فى هذا الظرف الخاص راجعة إلى أنه كان يلاحظ صورة من نفسه . وهل كانت حياته إلا سلسلة ضعف واستكانة ثم ثورة من جديد . ألا تراه وقد أقسم ألا يكون له بكابر علاقة ورفض مراراً دعوة مدام دلكسمبور له يرجع عن عزمه حينما زاره دوق لكسمبور ولا يكتفى برد الزيارة بل ينتقل إلى قصره ويعيش معه ويمضى سنين تباعاً فى كنفه وحمايته . ثم ألا ترى كيف ترك الصومعة فجأة بعد ما كان مصراً على البقاء بها . فهذه الطفرات هى من نوع طفرة جولى ديتانج فى ساعة حفل الزواج .

وفيما كان روسو يجوب البحار يتهادى به السفين ما بين صقيع المتجمد ونيران

خط الاستواء وهو يزرع على جبال الأمواج القائمة المتهدمة قطع حبه ويرسل فى أجواء البحار تنهدات وجده وهواه كانت جولى فى أحضان زوجها وكان أبناؤها فى أحضانها ، وكانت السعادة تحيط بهم جميعاً لولا ما كان يثقل الزوجة من أسرار ماضى غرامها مما كانت لا تفتأ تذرف عليه دمع التوبة وترجو من رحمة القدر عنه المغفرة والإنابة . وكانت ابنة عمها كلير على مقربة منها تواسيها ساعات ذكرها وتنصح إليها ألا تبدى من أمر هذا الماضى شيئاً إلى زوجها حتى لا تدخل إلى نفسه من الهم ما قد يعكر صفو عائلة منت عليها الأقدار بالسعادة .

ثم غالت المنون زوج كلير فانقطعت عن ابنة عمها زمناً ترى من شأن ميراث ابنتها . وفيما هى بعيدة عاود جولى رجع من صوت ضميرها ألح بها لتكشف للمسيو فولمار عن صحيفة ماضيها . وفيما هى فى مناقشة ذلك مع كلير عاد سان برى من سياحته وتجواله .

كنا نود مع جول لمتر لو نرى الموقف الذى اعترفت فيه جولى لزوجها بماضى غرامها . وكنا نريد أن نعرف أثر ذلك فى نفسه وما قام بينه وبين جولى من حديث . لكن روسو مر بذلك مرًّا وكأنما تركنا نفهم أن المسيو فولمار قال لجولى ما قاله هو لتريز لفاسير حين اعترفت له بأن شاباً استغواها مبتدأ الشباب من أنها كذلك أحب إليه . أو أن المسيو فولمار وكان يوم تزوج جولى قد فقد ثروته وأصبح بعد زواجها مدير مالها وثروتها لم يبق له إلا أن يذعن لكل مظاهر إرادتها . على أنه كان يعلم كل شىء قبل اقترانهما وإنما رضيه إعجاباً بصفاتها وطمعاً فى محبتها واحتفاظاً بكلمته لأبيها . ولذلك كان كل ما وقع لنا فى الهلويز عن أثر هذا الاعتراف أن كتب فولمار إلى سان برى يقول له : « كلفت أن أكتب إليك برغم عدم سابق تعارفنا . فقد كشفت أحكم الزوجات وأعزهن لزوجها السعيد عن مستور قلبها ، وهو يحسبك جديراً بما كان من محبتها إياك ويفتح أمامك بيتاً له يسود فيه الطهر والعفاف . وإنك لواجد فيه الصداقة والإكرام والاحترام والثقة . فراجع نفسك واعلم أنه ليس ثمت ما يخيفك . فاحضر ولا تثريب عليك . وإنك لن تتركنا إلا بعد أن تترك لك صديقاً — فيلار » . وعقبت جولى على هذا الخطاب بحاشية فيها : أحضريا صديقى فإننا ننتظرك مشوقين . ولعلى لا أهتم لرفضك رجاءنا — جولى . . وأرسل هذا الخطاب وحاشيته طى كتاب من مدام دورب أبدت فيه ما لا يزال بقلبها من شوق إلى

سان پرى ومحبة له وعطفٍ عليه .

وعاد سان پرى بعد ما جوب فى الآفاق راضياً من الغنيمة بالإياب ، وأخذ هذا الكتاب فاضطربت يده وسار فى طريقه إلى كلارانس : « وكنت كلما اقتربت من سويسرا ازددت شعوراً باضطرابى حتى كانت اللحظة التى بدت لى فيها بحيرة ليمان من أعالى الجورا لحظة سحر وبهر . وتنسمت ريح بلادى العزيزة التى أغرقت من قبل هواتن مسراتها قلبى ، وهواء الألب الصافى الصحيح ، ونسيم وطنى الرقيق البالغ فى عذوبته ما لم يبلغه عطر الشرق . وتلك الأرض الغنية الخصبة ، وهذا المنظر الفذ أبدع ما وقعت عليه عين الإنسان ، وذلك المقام الساحر لم أجد له فى العالم نظيراً ، ومنظر الشعب السعيد الحر ، وجمال الفصل ورقة الطقس وألف ذكرى عذبة أيقظت ما تذوقته من مشاعر - تنسمت ذلك كله فسرت إلى نفسى هزات لا أستطيع تصويرها وخيل إلى أن قد رد على نعيم المتاع بكل حياتى جميعاً معاً » .

ثم شعر بانقباض وباضطراب وخوف لما قارب منزل فولمار . لكن حسن اللقيا وقوة عزيمة جولى بددا مخاوفه واضطرابه . وقد وصف روسو حركات نفس العاشقين فى هذا الموقف بإسهاب وإبداع وقوة حتى انتهى بهما إلى الطمأنينة فى كنف الطيب فولمار بلغت به طيبته حتى أن أباح للعاشقين تبادل القبل إشفاقاً على سان پرى وأملاً فى شفائه من لاعج غرامه .

وبعد أيام ارتحل سان پرى فزار مدام كلير دورب ثم عاد . ولم يطل به المقام فى المنزل الجديد حتى جاءت إليه مدام كلير دورب هى الأخرى . وكذلك أصبح سان پرى بين محبوبته وزوجها وصديقته . وظلوا جميعاً سعداء بهذ العيش لا تلعب دوافع الشهوة بنفوسهم ولا يحس المسيو فولمار أى غيرة من هذا الضيف الذى فتك فى الماضى بعفاف جولى بل تجمع الفضيلة بينهم على نحو ما يريدون . . ولا غرابة فى قهرهم كل نزعات الحس فقد كانت إرادتهم فى متناول أيديهم ولم تكن قلوبهم من قلوب البشر .

وهذا ما أخذه كثير من الكتاب على روسو سواء فى ذلك خصومه والمعجبون به . ولسنا ندرى هل كان روسو ملوماً بمقدار ما يظنون . فإنما وجه الغرابة أن يكون هؤلاء جميعاً معاً ثم يكونون من الطهر ومن الفضيلة بما لم يطمع فيه بفنوس فى قصة

تاييس على ما كان من خلوص نفسه ومن قداسته . أما اجتماعهم على هذا النحو فلم يكن غريباً فى ذلك العصر ، عصر مدام دبناى ومدام دسابران ومدام ديفو ومدام دودتو ومدام دلكسمبور وغيرهن من سيدات القرن الثامن عشر كن يعتبرن أزواجهن شركاء شرعيين كل ما لهم من الشركة سر الصورة الظاهرة لكى تبدو الناس صورة مشروعة ثم لا يكون لأى من الزوجين حق الحكم على قلب صاحبه ولا على تصرفه . بل كثيراً ما كان الزوج يعتبر صورة مكملة فى المنزل لا يؤبه لها إن وجدت ولا يعنى بها إن غابت . وقد بلغ من ذلك حتى روى أن أحد الأدباء ممن كانوا يحضرون مائدة سيدة من هاتيك الشريفات لاحظ أن رجلا من زملائه على المائدة لم يحصل التعارف بينه وبينه قد انقطع عن جمعيتهم فأخبرته السيدة أن ذلك الرجل كان زوجها وأن القدر المحتوم أصابها فيه : وليس هذا الزوج إلا مثلا لأزواج كثيرين فى ذلك العصر .

ثم إن حياة جان جاك كانت سلسلة من نوع حياة سان پرى . فكانت مخاللته لمدام دفارنس كمخاللة سان پرى لجولى قبل زواجها . وكانت حياته مع مدام دبناى وتعلقه بمدام دودتو ومقامه مع دلكسمبور حيـة وموق وتطلع كحياة سان پرى مع جولى بعد زواجها . وكانا جميعاً يتكلفان الفضيلة القاسية لا حبًا فى الفضيلة ولكن احتفاظاً بمركز عجزت مواهبهما العملية وقعد بهما فقرهما عن الاحتفاظ به . لذلك لم يكن المركز الذى وضع روسو فيه أشخاص روايته غريباً عليه ولا على جمعية عصره وإن تصورناه نحن غريبا بمقارنته بجمعية العصر الحاضر . وكل ما فيه من الغرابة إنما هو ذلك الطهر القاسى الذى يتنافى مع الطبائع البشرية وبخاصة عند أهل جيل إباحى رقيق فهم تمام الفهم أن الحياة غاية الحياة وأن طبق هذه النظرية الرقيقة القوية تطبيقاً فيه من الإغراق ما قد يشوه بعض فاتن جمالها .

على أن روسو قصد من وضع أشخاص روايته فى هذا الوضع ومن تحكيم الفضيلة فيهم وإعفائهم من غواية الشيطان ونزعه غاية معينة . فقد أراد أن يدلل لأهل زمانه على أن القلب الطيب والإرادة الحسنة يكفلان الإقامة من الزلة والإقالة من العثرة . وهو بعد أن كتب الجزأين الأولين من الرواية ليرضى شهوات قلبه ويروى ظمأ عواطفه عاد فذكر مبادئه ونزعاته الخاصة فصمم على استكمال الرواية ونصب نفسه خطيباً ومعلماً وداعياً إلى السعادة عن طريق الفضيلة والأخذ

بوحى الطبيعة . وأى رجل أجدر من روسو بالقيام بهذه الرسالة وهو ذلك الحقير الوضيع المدنس الذى بقى فى حقارته وضعته حتى بلغ الأربعين من عمره ثم تشبث بأهداب الفضيلة وعالج عوج نفسه قصد إصلاحها فوصل من ذلك إلى مقام محمود يغبطه عليه كل من كان للفضيلة محبًّا وبها متعلقاً .

وليبين الوسيلة إلى ذلك صور لنا فولمار المسن الهادئ النفس القليل التعلق بالأشياء متعلقاً بجولى ولعاً بها . فلما وقف من أبيها على ماضى صلتها بسان برى قال إنها كذلك أحب إليه وأخذ على نفسه إسعادها . ويسر له ذلك ما حدث فى نفس الفتاة من التغير والثورة ساعة حفل الزواج . وقد رأى القارئ أنها حرمت على سان برى مكاتبتها بله زيارتها وأنه بعد سنين من ذلك وبعد أن أصبحت هى أماً ركب البحر ثلاث سنين تباعاً فلما عاد كشفت جولى لزوجها عن سابق علاقتهما . فكتب هو إليه يدعوه إلى منزله ابتغاء شفائه من غرامه . . وكانت حجته فى ذلك أن الحب عاطفة سريعة إلى الزوال ، وأن جولى وسان برى افترقا وحبهما فى عنفوان قوته فبقى على هذه القوة فى نفسهما برغم ما طرأ على وجود كل منهما خلال هذه السنين من التغير . ولو رأى كلٌ ما حل بصاحبه لهدأت حدة عاطفته وهمد الحب فى قلبه وانقلب صداقة لا تخاف عواقب ولا تخشى .

ولما جاء سان برى ورأى مدام فولمار زوجاً وأمًّا وشعر بما أولاه المسيو فولمار فولمار من ثقة لم يدر بخاطره أن ينزل عن هذا المستوى ليكون مجرماً قديراً على التسفل فى درك الدناءة إلى حد التفكير فى الفتك بعرض رجل ائتمنه وبسعادة امرأة لم يزل ميله إليها شديداً ويشرف أبناء هذين الزوجين العزيزين . فظل وإياهما ينهل من سعادتهما . لكن ذكريات الماضى كانت تهز قلبه هزات عنيفات من حين لحين . وكانت جولى تشاركه اهتزازاته فتحول الفضيلة دون أن يحدث ذلك من الأثر أكثر من ألم سرعان ما يتبدد ليحل محله الاغتباط بالحاضر وبما فيه من هناء وسعادة .

وهنا يصف روسو بإسهاب وتطويل يستغرق عشرات الصحائف صورة حياة جولى وزوجها وأبنائها على ما وجدهم سان برى . فهو يصف خدمهم ومزارعيهم وصلاتهم بهؤلاء الخدم والمزارعين وصلات الخدم والمزارعين بعضهم ببعض . ثم يصف منزل فولمار وحديقته وطيوره . وهو يضع ما بين هذه الأوصاف الأفكار العزيزة عليه من ضرورة تضامن الأغنياء والفقراء تضامناً أساسه العطف والرحمة

من جانب الأغنياء والاحترام والمحبة من جانب الفقراء – ومن ضرورة عدم الامتزاج بين الرجال والنساء إلا فى الاجتماعات العامة والحفلات الراقصة التى يجتمع فيها الجنسان تحت إشراف الأكابر وذوى المقام – ومن مضرة البطالة وضرورة تعويد الناس جميعاً من كل الطوائف مداومة العمل . ومن ضرورة تربية الأطفال فى أحضان الطبيعة وإدخال محبتها فى قلوبهم حتى لا تفسدهم من بعد صناعة الاجتماع . ومن ضرورة البر بالفقراء والمعوزين ومما إلى ذلك من وسائل السعادة حسب إلهام الطبيعة – وإنك لترى هذه الأوصاف والصور والأفكار منثورة على صحائف الرواية بإبداع فى الأسلوب الموسيقى الجذاب يدعك وأنت تقرؤها مسحورا على نفسك مأخوذاً بجمال الطبيعة البديعة الذى أحاطك به روسو فأحيا حولك الغابات بأشجارها وأزهارها وطيورها وغدرانها ورقيق نسيمها وشميم عطرها حتى أنساك نفسك الوقت الذى يمر بك وأنساك المكان الذى أنت فيه .

ولم تكن هذه الأوصاف والصور خيالات شاعر ولا أحلام كاتب ولكنما قصد بها روسو أن يصور لجمعية ذلك العصر مثلا من أمثلة الكمال الإنسانى الذى يجب أن ينسج عليه للوصول بالإنسانية إلى السعادة . ولقد سار فى ذلك على مثال الأنبياء الذين كانوا يضربون للناس الأمثال ويجذبونهم إلى الفضيلة بجميل ما يصورونه من آثارها من تافه الأعمال وجليلها . فكما رتب بوذا وغيره من الرسل صور الطعام والشراب والملبس والنوم والبر بالفقير وإعانة الضعيف كذلك فعل روسو . فلم يترك حركة من حركات الإنسان إلا صورها على ما يجب أن تكون عليه من الكمال متخذا عائلة فولمار ومن يحيطون بهم من خدم وعمال وما يحيطهم من مناظر ومظاهر مثلا أعلى للإنسانية السعيدة . وأعلى مثل للسعادة عنده هو العيش البسيط وسط الطبيعة الجميلة بعيدا عن ضجة المدن وضوضائها وحيث الحرية الكاملة الشاملة .

على أن السعادة ببلوغ المثل الأعلى إنما تتأتى للناس إذا عنى أهلهم بتربيتهم من أول نشأتهم حسب إلهام الطبيعة ووحيها . والتربية وفق الإلهام الطبيعى عند روسو لا تكون بتقييد الطفل وتعويده عوائد الاجتماع ولكن بتوجيهه فى الطريق الطبيعى وذلك بأن يعامل ويعلم طول مدة طفولته على أنه طفل ضعيف محتاج لغيره محتاج لخدمة الذين يستطيعون تركه . وبأن لا يناقش مناقشة الكبار ذوى العقل فى وقت

لم يتكون عقله فيه بعد . . . «وإن من الأغلاط المشتركة بين جميع الآباء الذين يزهون بشيء من العرفان أن يحسبوا أولادهم على جانب من العقل من يوم مولدهم وأن يخاطبوهم مخاطبة الرجال من قبل أن يستطيعوا التلفظ والكلام بدعوى أن العقل هو الوسيلة لتعليمهم . وذلك وهم . وإنما يجب استعمال كل الوسائل ليتفتق الذهن . فإن أشق ما يصل إليه الإنسان وأحوجه لطول الزمن هو العقل . ومخاطبة الأطفال من نعومة أظفارهم بلغـــة لا يفهمونها تعودهم على الاكتفاء بالتشدق بالألفاظ وعلى تقليد ما يقوله الآخرون ثم يحسبون أنهم أوتوا من الحكمة ما أوتى أساتذتهم . ومن شأن ذلك أن يجعلهم مجادلين حبًا فى الجدل حتى تراك ولا تصل منهم إلى ما كنت تحسب أنك واصل إليه من طريق العقل إلا بوسائل الإرهاب مضافاً إليها ما تستدعيه غالب الأمر من الكبرياء والتعاظم» . . .

وهنا يعرض روسو صورة من فكرته فى التربية قد لا يحسن أن نسوقها قبل الكلام عن كتابه (أميل أو التربية) فثم موضع عرضها على شكل أكمل وأتم .

* * *

ولما فرغ روسو من وضع قواعد السعادة حسب إلهام الطبيعة ووحيها سواء فى شأن تربية الناشئة أو فى الحياة المنزلية والاجتماعية رجع يفكر فى شأن أشخاص روايته بعد ما تركهم زمنا طويلا وبعد ما نسى القارئ أو كاد أنه يقرأ رواية قصصية تحكى حوادث وعواطف وميول وشهوات الأشخاص الذين ألفهم والذين ألفت الرواية من أجلهم . لكن الموقف الذى وصل إليه أشخاص الهلويز لا يتحمل نشاطاً جديداً ولا حركة . إنهم جميعاً أشخاص كانوا على جانب من النقص أو من سوء الحظ ثم عالجوا الحظ وعالجوا الفضيلة وعالجوا السعادة فوصلوا منها جميعاً إلى كمال لا يعرف الإنسان له مثيلا إلا فيما توصف به حياة أهل جنة الخلد فلم يبـــق لهم إلا أن يخلدوا فى هذه الحياة ولم يبـــق لرواية روسو موضع للانتهاء .

ولقد شعر روسو بذلك تمام الشعور . وكان طبيعيًّا أن يشعر به وقد بدأ روايته وسار فيها من غير نظام خاص أو ترتيب معين . فلما استحس دقة المركز لم يجد وسيلة يخرج بها من المأزق ويختتم بها روايته إلا ابتداع حادثة غير منظورة تضع حدًّا لحياة أكثر أبطال الرواية خطراً .

أما الصورة التى رسم بها روسو هذا الحادث الحاسم والعواطف التى أحاطها

به فلا تخلو من جاذبية ككل ما يصوره ويكتبه . فقد اقتضت إرادة ميلورد ادوار أن يسافر وسان يرى إلى إيطاليا . وفيما هما فى الطريق قضت ظروف أن يمضيا الليل فى فلنيف . وكان من حظ سان يرى أن ينزل فى غرفة نزل فيها فى إحدى سياحاته الماضية إبان وجده وهيامه . فهاج ذلك قلبه وعاودته الليل أحلام جعلته يرى بينه وبين جولى حجاباً كثيفاً لم يتمكن معه من تبين صورتها .

ولما وصلا إلى رومة شغل ميلورد ادوار بعلاقات غرامية بينه وبين إحدى المركيزات كما أخذته عن نفسه فتاة تدعى لور . وقد توفيت المركيزة بعد زمن ففكر ميلورد فى الاقتران بلور . وهنا رأى سان يرى فى ذلك ما يحط من قدره كرجل من أشراف إنجلترا . لذلك جاهد حتى وصل لإقناع الفتاة أن تلجأ إلى الدين وأن تطهر فى حمى الله .

أما جولى فقد رأت فيما علمته من تذكر سان يرى سابق غرامهما وفيما قد يجر ذلك إليه من محاذاة الخطر أن تنصح إليه بالاقتران بابنة عمها كلير . وتذرعت إليه بحجة غير مشرفة له . فقدخشيت أن يفسد طمأنينة تابعاتها وخدمها باتصاله بهن

ولكى تبرر هذا المطعن قالت : « لنقل كل شىء ما دام حتماً أن نقوله ، ولنـدع التواضع فى سبيل محبة الفضيلة محبة صحيحة ! فالرجل لم يخلق للعزوبـة . ومن الصعب ألا تجر حالة مخالفة كل المخالفة للطبيعة إلى اضطراب واضح أو خفى . فما هى الوسيلة إلى التخلص من عدو لا يفتأ الإنسان يحمله فى ثنايا نفسه .

« انظر فى البلاد الأخرى إلى أولئك الغلاة الذين يتخلون عن أن يكونوا رجالاً ترى أن الله يجزيهم عن غوايتهم فيتركهم ونفسهم يدعون لنفسهم الولاية وهم أدنياء ينطوى ادعاؤهم على الرجس والخطيئة ويسقطون إن حقروا الإنسانية إلى ما دون الإنسانية » .

(وكذلك ترى روسو لا يجد فرصة يظهر فيها فضل البروتستانتية على الكثلكة إلا انتهزها) .

على أن هذه الحجة لم تمنع سان يرى من أن يشعر بما فى خطاب صاحبته من الإهانة له وإن مر بها مر الكرام باللغو . وليجيب على اقتراحها حلل عاطفته

بالنسبة لابنتى العم جميعاً تحليلاً دقيقاً بديعاً انتهى منه إلى أن جولى هى المخلوق العزيز لذاته ، يحبه هو ، وتحبه كلير ، ويشترك هو وكلير فى محبته ، ويتحاب هو وكلير بسبب هذه الشركة . فإذا ارتبطاً برباط الزواج اقتضى ذلك حتما ألا تكون جولى بينهما وهو محال . وإذن فمحال أن يكون الزواج .

ولم تجد جولى فى رده مقنعاً فأعادت الكرة وأوضحت له ما تشعر به من السرور لفكرة ارتباطه وإياهم برابطة النسب حتى يضمن ذلك بقاءهم جميعاً معاً فتبقى تلك السعادة التى ينهلون من عذب نميرها مذ عاد سان يرى من سياحته والتى بلغت حتى أخرجت جولى عن طوقها ودفعت بها إلى الإمعان فى التدين إمعانا كاد يصل بها إلى بعض درجات المشاهدة الروحية .

على أن هذه المشروعات الطويلة العريضة التى ملأت ريشة روسو بوصفها جزءاً كبيراً من روايته والتى كانت تصلح مقدمة لحوادث ووقائع جديدة تستغرق ألف صفحة كما استغرقت الهلويز ذهبت كلها هدراً . فقد خرجت جولى مع أهلها للنزهة على شاطئ البحيرة وفيما ابنها يجرى سقط فى الماء فألقت بنفسها وراءه وأنجته وخرجت ولكنها مرضت على أثر ذلك مرضاً حقق حلم سان يرى وجاء على حياتها .

وفى أثناء مرضها عرضت على القسيس اعترافها الدينى الذى شرحه روسو بعد ذلك فى أميل عند كلامه عن تعاليم قس من السافوا . وبموتها انتهت رواية روسو الكبيرة .

ليس عسيراً أن يرى الإنسان ضعف الصنعة الروائية فى هذه الرواية وبخاصة فيما بعد زواج جولى ويأس سان يرى . فقد كان فى مقدور المؤلف أن يصور من التطورات النفسانية الممكنة فى عالم البسيكولوجيا ما شاء من مختلف الأشكال . وكان فى مقدوره أيضا أن يرقى بنفس أشخاص روايته إلى الطهر والفضيلة عن طريق التوبة والتكفير على صورة روائية دقيقة . لكن روسو ترك الصنعة الروائية ولجأ إلى تسطير تصوراته وأحلامه وأوهامه فى كيفية حصول الإصلاح الاجتماعى فى جمعية ذلك العصر الفاسدة .

على أن هذا الضعف الفنى لم يقلل من نجاح روايته ومن عظيم الإقبال على قراءتها لأول ما نشرت ، وصار نجاح خطاب روسو إلى دالمبير وخطاب التفاوت .

وخطاب العلوم والفنون ضعيفاً بل فاتراً إلى جنب نجاح الهلويز . ويذكر القارئ كم كان نجاح هذه الخطابات عظيماً حتى عد حاسماً ، وكان أكبر أسباب نجاح الهلويز إلى جانب قيمتها الأدبية الكبيرة عظيم إعجاب صالونات السيدات بها ؛ فقد خرجت هذه الرواية على ما كان متعارفاً قبلها من وصف حياة المرأة فى لحظ الغواية من لحظات وجودها ووصفت حياة نسائية كاملة أرضت سيدات ذلك العصر ذوات الذكاء والآداب . قال فاجيه : « لقد وصفت لهن امرأة لها ضعفها ولها فضائلها ولها خلقها ، وقد ملقت هذه الرواية فيهن بعض عيوبهن وبعض ميولهن الطيبة كما ملقت كبرياءهن مباشرة وبنوع خاص ، ثم إنى نسيت الحاجة إلى الدموع حاجة لم يقم أحد بسدادها من عهد راسين ؛ فقد اجترأ هذا الرجل على استبكائهن لا بتكديس المصائب الشنيعة كما فعل بريفو فى قصصه المطولة ، بل من طريق آلام المحبين الرفيعة الكريمة صورها . على ما قال سانت افرمون ، فى قصة بسيطة الوضع - وإن تك مزيفة أشد التزييف - يحب أبطالها الطبيعة ويتشهون الألم » .

وحاجة السيدات والشباب بل الشيوخ إلى الدموع من حاجات الحياة الماسة . وذلك بأن الدمعة هى ثمرة العاطفة الشهية . هى الجواب الناطق فى صمته بمعانى اللذة والألم والسرور والانقباض والحب والكره والفرح المفرط والحزن الأليم . هى المنفس لكربة المكروب والضابط لفرحة النشوان واللؤلؤة يلتقطها المحب بين شفتيه ولا تزال فوق خد محبوبه والتجاوب الموسيقى للتنهد العميق يدفع به الألم المبرح من أعماق الجوانح ، وخير الدموع وأحلاها دمعة الوجد والتذكر .

وقد جف الأدب الفرنسى بعد راسين وزاده جفافاً اتجاه تيار الميل العام إلى التعقل الفلسفى وانتشار ذلك بين طبقات الرجال والنساء واتجاههم جميعاً صوب الإلحاد والنفى وتشبثهم فى محاربة الدين محاربة لا هوادة فيها . فلم يكن بد من كاتب حى العاطفة قوى الحس شديد الإحساس غزير الدمع رقيق الشعور ليدفع إلى هذا الجفاف روحاً جديدة تخاطب القلب وليدر من دمعه على العواطف المجدبة بسبب خضوعها للشهوات المتحكمة وابلا يعيد إليها حياتها وخصبها . وأى كاتب أقدر من روسو على القيام بهذا المجهود العظيم الذى هز قواعد العصر الأدبية والاعتقادية .

لقد عهدنا روسو فى حياته العادية غزير الدمع إلى حد فوق المعقول . فهو يذرفه لكل شيء وللاشيء . يذرفه لخروج دوق لكسمبور مع كوانديه ليسير وإياه بعض الطريق معتبراً فى ذلك من التنازل ما يدل على عظيم طيبة قلب هذا السيد العظيم ، ويذرفه حين يدخل غرفة البغى فيراها على جمالها مسلمة للكافة يلهو بها هو وغيره ، ويذرفه على أيدى وتحت أقدام مدام بازيل ومدام دلارناج ومدام دودتو وغيرهن لغير سبب يستعبر له أى رجل سواه . . لذلك لم يلبث أن أطلق عنان قلمه فى الهلويز حتى أفاض محاجر عشاقه بدموع مخلصة صادقة لا يستطيع قارئ أن يمنع نفسه فلا يشارك فيها أصحابها إلى حد قل أو كثر .

فضلا عن سداد الهلويز للحاجة إلى الدموع واستفزازها للعاطفة الخالدة فهى قد نشرت فى جو ذلك العصر المترف البعيد كل البعد عن مظاهر الطبيعة البكر أبهى صور الطبيعة وأحلاها ، وما أكثر ما يتسلى المترف بالصور عن الحقائق وما أكثر ما تكفيه نقوش الرسامين وأغانى المطربين وروايات المسارح عن الغابات والأشجار والأطيار والحياة الحية بذهابها وجيئتها وجمالها وجلالها وأغاريدها ونجواها . . بيد أن رواية روسو كانت أبعد من ذلك أثرًا . فهى بنشرها صوراً لطبيعة حية ناطقة فى مقاصير السيدات قد أثارت فى نفوس أهل ذلك الجيل الميل للرجوع إلى أصول هذه الصور ودفعتها بذلك إلى حب المتاع بالطبيعة البكر فى بكورتها ذات البهاء والجلال . وما كان أبعد هذا الميل أثراً إبان الثورة الفرنسية .

ولقد جر الميل إلى المتاع بالطبيعة حب البساطة بما أبدع روسو من وصف هذه البساطة وبيان ما تؤدى إليه من السعادة فى الحياة . والواقع أن أهل العصر كانوا يشعرون بثقل حمل الحياة المترفة ولكنهم كانوا لا يجدون عنها حولا لأنهم كانوا يعتبرونها ضرورة من ضرورات الوجود . فلما صور لهم روسو جمال البساطة وعظمتها بدءوا يشعرون أن البساطة ليست سبباً من أسباب الحقارة ولا الضعة ، وأن الإنسان يستطيع أن يكون بسيطاً وعظيماً معاً .

على أن أبدع ما فى رواية روسو ارتفاعه بسان پرى وبجولى من درك الدنس والخطيئة إلى ذروة الطهر والفضيلة على سلم التوبة والتكفير ، ثم معادلته بين عذاب الاستسلام للخطيئة على لذة هذا العذاب وطمأنينة النفس الفاضلة طمأنينة تبلغ حد السآمة ، وتصويره جولى فى التجائها إلى حمى القداسة الروحية

تريد الوصول منها إلى حد الكمال ، ووصفه ما تجد هذه المرأة الفاضلة فى ذلك من المشقة ، وكيف تذهب المشقة عنها سآمة الطمأنينة .

ولسنا فى حاجة لأن نعيد أن الأسلوب الموسيقى العذب الرقيق المحزون الذى امتازت به هذه الرواية كان من أكبر أسباب الثورة التى أحدثتها فى الأدب . فقد أحدثت فى الأدب ثورة بالفعل . كان الأدب الروائى مقصوراً قبلها على الوقائع التاريخية المطولة الكثيرة الشعب والمملوءة بالمجازر أو الدسائس أو بالغرائب التى يذهل أمامها الخيال ، ثم تبعثر بينها بعض الأفكار الجافة . فخلقت الهلويز أدباً لا يعرف الوقائع الكثيرة ولا يعرف الأوهام والخيالات ، وإنما يعتمد على وقائع قليلة بسيطة متعارفة يقيم عليها بناء الرواية ثم يملأ الباقى بزخرف الوصف ودقائق التحليل ورقيق العواطف . ويغلو فى ذلك إلى حد يرفع الإنسان عن مستوى الإنسان فى تفكيراته وفى عواطفه وفى حسه وإحساسه .

وهذا الغلو من ناحية وعدم التقيد بالوقائع التاريخية من الناحية الأخرى هو الذى جعل هذه الرواية طليعة للرومانتزم فى فرنسا . فقد كان الأدب قبل ذلك إنشائياً (كلاسيك) كما سبق بيانه . وكان نزاعاً للرجوع إلى آداب اليونان والرومان والصدور عنهما وورد مناهلهما واعتبارهما فى الأدب مثال الكمال . على أن الخروج عليها بدأ فى ممالك أوربا عدا فرنسا فى أيام ثورة الإصلاح الدينى التى قام بها لوثر وكلفن وكوسوث . وكان شكسبير فى كثير من رواياته رافع لواء الخروج إلى ميادين الحرية الأدبية فى حدود العقائد السائدة . لكن فرنسا بقيت مقيدة بالكلاسيسزم وبقى راسين المثل الأعلى فى الكمال الأدبى لتقيده به أكثر من سواه . وكورنى الذى كان من أبطال هذا الأدب لم يسلم من النقد لأنه كان يندفع فى بعض رواياته إلى خارج حدوده . أما موليير فقد رفع علم الثورة ولكنه بقى فى ناحية الهزليات (الكوميك) فاعتبر صاحب نوع فى الأدب جديد لم يؤثر على كمال راسين ولم ينقص شيئاً من مكانة أدبه . ولما جاء القرن الثامن عشر وبدأ التغير لم يستطع أحد أن يواجه قواعد الأدب المقررة وأن يعلن وجوب تصوير الأدب بصورة العصر الذى يعيش فيه ، وظلت الروايات التى من هذا النوع تعتبر خارجة على معنى الكمال الأدبى . ولم يكن إلا الشريد روسو ، هذا العاشق للطبيعة الهائم بجمال سويسرا المغرم ببحيراتها العائش فى نفسه بنفسه لنفسه هو القدير على

الخروج بالهلويز لتكون طليعة للرومانتزم الرومانسك [١] .

كان طليعة للرومانتزم لأنه ترك الماضى بجملته وترك اليونان والرومان وانتزع روايته من الحياة المحيطة به وأقام أشخاصها بين الأشخاص الذين عرفهم والذين كانوا يعيشون معيشة كل أهل زمانه . وكان رومانسك (روائياً) لأن أشخاصه كانوا فى عواطفهم وفى حياتهم وفى تفكيراتهم روائيين يغلون فى كل ما يخصهم يحبون إلى حد الجنون ويضعفون إلى حد الجريمة ويتوبون إلى حد الطهر الأقصى ويعيشون معيشة حلم وأمل بحت . ولعمرك هل عرفت فيمن عرفت أمثال جولى فى ضعفها وفى عقلها وفى منطقها الخطابى وفى توبتها وفى مقامها بين زوجها وعشيقها وفى موتها واعترافها . أم هل عرفت مثل زوجها وفلسفته التى بلغت من تحكيم العقل أن أعدمت عنده كل عاطفة وكل شعور وكل أثرة وكل غيرة . وسان يرى وكلير وميلورد ادوار . هل فى الحياة أشخاص مثلهم . أو أنهم جميعاً خلق خيال متوهج يبلغ من بريقه أن يسبى القارئ بله القارئة عن نفسه ويسلبه وقته وهو بذلك فرح وله مستريح .

أخشى أن أكون قد غلوت . فقد ظهر فى عالم الأدب بعد اثنتى عشرة سنة من ظهور الهلويز كتاب صغير الحجم إلى جانب الرواية الضخمة . كان روائياً (رومانسك) أكثر من رواية روسو . وحاز من النجاح ما حازت إن لم يكن أكثر . أقصد قصة « آلام فرتر » التى وضعها الكاتب الفيلسوف الألمانى جيت Goethe وفيها قص حديث غرامه مع شارلوت ووضعها فى صورة المراسلة ووصف فيها حالا نفسية تزيد فى دقتها الفلسفية على حال سان يرى بكثير . ولسنا نريد فى هذا المقام أن نقارن بين الكتابين إلا من حيث تشابههما فى الوضع ، ولأن فرتر كان يعشق شارلوت المخطوبة إلى ألبير كما كان سان يرى يهيم بجولى زوج فولمار ، ولأن ألبير وفولمار كانا على درجة واحدة فى فلسفة الغيرة . أما كتاب جيت فيمتاز بأنه أصدق لهجة وأقوى عاطفة . ويرجع ذلك إلى أن جيت كتب قصة حبه ولا يزال حبه ملتهباً . فلما أتمها شعر بحبه وقد تلاشى وكأنما كان قد ملك شارلوت بنشره قصة غرامهما . أما روسو فكان يقص أحلامه وأوهامه ويحكى فى شيخوخته ذكريات شباب مفقود . كذلك فإن الحادث الحاسم فى رواية روسو سخيف مصطنع . أما فرتر فقد بلغ من شدة وجده حتى انتحر هياماً بمحبوبته وحتى نشر بذلك فى جو أوربا كلها

---

(١) الروائى .

فكرة انتحار العاشق الذى أسقط فى يده .

إذن فقصة جيت هى قصة الحياة والحب والموت . وقصة روسو هى قصة الحب المتطاير على أجنحة الخيال والوهم . وإن يك وهمه بديعاً وخياله ساحرًا .

على أن سحر خياله وإبداع وهمه لم ينس أهل عصره ما نقص قصته من صنعة روائية . فقد لاحظ كثيرون – ومنهم مدام دبناى – أن المؤلف كثير الظهور فى خطابات أبطاله . والواقع أن أكثر من نصف الرواية لا يخص أبطالها ولا يتعلق بوقائعها وإنما هى آراء روسو فى المبارزة وحياة باريس والاقتصاد المنزلى والتربية وما سوى ذلك مما مر بك . وتلك آراء لا تقتضيها مواقف أبطال الرواية . فدسها فيها هو إذن حشو شنيع تأباه الصنعة كل الإباء .

كذلك فإن مواقف الرواية ملفقة تلفيقاً مدهشاً لا يبرره إلا حياة روسو المدهشة . على أن بين الموقفين من الفرق أن روسو لم يكن يوماً من الأيام مختاراً فى حياته ، على حين كان أشخاص روايته مطلق الاختيار فى كل ظروف الحياة . فهو لم يعش إلا كما أرادت السيدات دفارانس ودبناى ودودتو ودلكسمبور . أما جولى فكانت من يوم اقترانها تعيش كما تشاء ، وكان كل المحيطين بها – حتى سان برى – يكيفون عقولهم وقلوبهم كما يحبون ويزجون بها فى أعمق أعماق التصور الروائى طوعاً واختياراً .

ولم يكن ذلك بالغريب فيهم إذا نحن رجعنا إلى منطق جان جاك . فقد كان منطقاً تحكميًّا قائماً على أساس من الإلهام فى أبسط درجاته أكثر صدوراً عن دفعات العاطفة والشعور منه عن وزن العقل للأشياء وتقريره قيمتها وتحليله إياها . وكانت الأشياء كلها مادية يغشاها أمام عقله ستار من الخيال فيخرجها عن صورتها العادية وعن صورتها المعقولة أحياناً .

هذه عيوب تبدو لنا اليوم جسيمة بالغة ، لكنها لم تضعف من قيمة رواية روسو ولم تقف فى سبيل نجاحها ، نجاحاً فاق كل ما كان يطمع فيه غيره من الكتاب . ولا عجب فهى تخاطب الإحساس والقلب بلا واسطة وتصل إلى حيلة الفؤاد وتهز خفايا الجوانح بما تعبر عنه من مختلف الوجدانيات وما تنشره من بدائع صور الطبيعة الناطقة ، وما تجريه من دموع ، وما تثيره من توجعات .

وما زلنا ولن يزال من بعدنا يعجب بما فيها من صور بزّ بها روسو أدباء عصره

وكتاب القرن الثامن عشر فى التمثيل والحس والخيال ووصف الطبيعة وإن لم نتشارك نحن ولا من بعدنا من أهل ذلك العصر حين جنوا بها جنوناً .

ولقد كان روسو فى حل من أن يتذوق لذة هذا النجاح كاملة لو أن نفسه كانت مطمئنة ولو لم يزدد بنجاحه اضطراباً بين ماضيه الحقير وعظمته الحاضرة وتردده الذى كان سبب اضطرابه . ولو أنه من الإقدام ما كان فولتير أو عشر معشار ما كانه نابليون لجلس بعد ذلك النجاح على عرش أعز قائمة من عروش الملوك ولما قدرت حكومة على أن تصدر قراراً كالذى صدر بالقبض عليه بعد نشر كتاب التربية ولكان صاحب اليد والمن على جماعة اللكسمبور بالإقامة بين ظهرانيهم . لكن شيئاً من الضعة كان عالقاً بنفسه ممتزجاً بوجوده طبيعيًّا فيه فلم تقو الظروف على التغلب عليه أو إخفائه . فشعر كأن الناس طرًّا يحسدونه حتى أخذ على مدام دلكسمبور شيئاً من جفوته . لكنه بقى فى تعلقه به تعلق الصغير بالكبير والتابع بالمتبوع يتعزى عن جفاء السيدة برقة زوجها ويحس بضرورة بقائه إلى جانبه يعزيه عن مصائبه فى فقد أخيه وابنه الوحيد وابن ابنه حتى ظهر كتاب العقد الاجتماعى وكتاب التربية فى السنة التالية (١٧٦٢) . وكان ظهور كتاب التربية بدء عودته للحياة المتشردة ، التجأ إليها بسبب قرار برلمان باريس بالقبض عليه وفراره إلى سويسرا على النحو الذى شرحناه فى الفصل السابق .

والقارئ لا شك سيدهش بعد تحليلنا كتاب التربية للسبب الذى أدى إلى صدور قرار البرلمان ، وسيرى مبلغ التطور العظيم الذى تم فى العصر الأخير من عصور الإنسانية والذى يرجع الفضل فيه للثورة الفرنسية التى اتخذت روسو مسيحها الهادى ونبيها المرسل . وإنه بعد ذلك ليزداد تقديراً لهذا المتشرد الوضيع الطريد واحتراماً لنبوغ نادر المثال . فإنما نبوغ روسو مصدره القلب ومكانه موضع الإيمان فى النفس .

٢

لإنسان طيب بفطرته . وإنما أفسده الاجتماع الذى غشى على تلك الفطرة بما أوغل فيه من صور الحضارة وبابتعاده عن الحال الطبيعية وإمعانه فى ذلك حتى بلغ غاية التدهور فى القرن الثامن عشر . ولا سبيل لإصلاح هذا الفساد إلا بوقف تياره والعودة بالأخلاق والعوائد والعقائد والقوانين وكل ما فى الاجتماع إلى أحضان الطبيعة والسير على نظامها وسنتها . يومئذ تزول من الاجتماع سمومه ويرجع الإنسان طيباً بالطبع كما كان .

ومن العبث محاولة هذه العودة من طريق الملوك والأشراف والكبراء . فلو أنك أقنعت هؤلاء جميعاً بضرورة تغيير النظام الفاسد الذى هم فيه لما وصلت من إقناعهم إلى طائل . فإن الحياة والعادة طبيعة ثانية . وهم قد جمدوا عند ذلك النوع من العيش بعد ما عانوه سنين طوالاً . وإنك لن تنقل رجلاً من الأبيقورية المتطرفة إلى الرواقية المتطرفة عن طريق إقناعه بأفضلية مذهب على مذهب .

ما هى إذن وسيلة روسو إلى الإصلاح الذى ينشده ؟

وسيلته التربية . فهو يريد أن يدع جانباً ذلك المجتمع الفاسد الذى يحيط به ، والذى يخضع هو لحكمه خضوعاً يضطره مع الطعن عليه إلى تملقه ، ومع احتقاره إلى إكباره ، ومع الإيمان بفساده إلى الارتماء فى أحضانه ، ليمد سلطانه على مملكة الأطفال البريئة الضعيفة العاجزة عن المقاومة المستعدة للتأثر وللانطباع فى قالب الطبيعة الذى يهيئه هذا المصلح الأخلاقى لها .

ولإيضاح هذه الوسيلة وضع كتابه عن التربية .

فبعد ما فرغ من روايته فى سنة ١٧٥٨ وبعد ما وصل من تطهير أبطاله فيها أن جعلهم يعيشون وفق قانون الطبيعة ويربون أولادهم مستلهمين وحيها عمد إلى وضع كتاب (أميل أو التربية) وانقطع له وعنى به حتى أتمه وطبعه بمعونة المسيو (مالرب) ثم أخرجه للناس فيما يزيد على الألف من الصفحات .

لم يحدث ظهور أميل ما أحدثته الهلويز فى الجمهور من ضجة . لكن ذلك

لن يكن راجعاً إلى قيمة الكتاب ونقد القراء له . وإنما كان سببه ما تهامس الناس به من أن للكتاب ولمؤلفه فى البرلمان شأناً وأن البلاط عنه غير راض .

و (التربية) لا شك خير كتب روسو بإجماع الكتاب قدماء ومحدثين ، وهو من خير ما كتب فى موضوعه . وليس يعيبه ما فيه من نظريات خيالية وأخرى فاسدة . فهو فى مجموعه الثمرة الناضجة التى أنتجها عقل جان جاك ، وهو أدق كتبه ملاحظة للواقع وأقربها لمنطق الفلاسفة الوضعيين وأسماها غاية وأبعدها أثراً .

و (التربية) ليس الأول مما كتبه روسو فى هذا الموضوع ولا آخره . فقد عرض له فى كثير من خطاباته الخاصة وشرحه بإيجاز فى مقال نشرته الانسيكلوبيديا بعنوان الاقتصاد السياسى وعالجه فى رواية الهلويز ثم عاد إليه بعد نشر أميل فى خطابه عن حكومة بولونيا . ولا عجب فقد دفعت الأقدار بروسو فكان أخلاقيًّا . والتربية هى الأساس الذى يجب أن تشاد عليه قواعد الخلق وكانت موضع بحث كثير من المؤلفين فى ذلك العصر .

لكن روسو لم يكن أخلاقيًّا بطبيعته ولا بنوع تعليمه . بل كان أخلاقيًّا بالمصادفة . وقد كانت نشأته الأولى مثلاً أعلى لسوء التربية ، أو بالحرى لعدم التربية . وإن ما تقضت فيه سنيه الأولى من ألوان الفاقة والتشرد والبؤس وضعة النفس وخدمة الغير وما لوث ذلك به نفسه من خبائث الكذب والسرقة وعدم الوفاء وسائر النقائص ليبعده عن كل صلاح لوظيفة الأخلاق المهذب الداعى إلى الفضيلة وإلى الرفعة الخلقية . كذلك لم تكن معالجته الموسيقى إلى سن الأربعين من مهيئات المصلح الأخلاقى . وإنما هى المصادفة التى أدت إلى نجاح خطاب العلوم والفنون ونواله جائزة أكاديمية ديجون ومعارضة الكثيرين له وإجابة روسو إياهم وتحمسه لفكرة الرجعة إلى الطبيعة – هذا كله هو ما جعل منه الرجل الأخلاقى نصير الفضيلة وبطلها .

وهو مؤدب بالمصادفة أيضاً . ولعل القارئ يذكر فشله فى تربية أولاد المسيو دمابلى بليون بعد مقامه سنة معهم ويذكر كيف انتهى بأن سرق نبيذاً من كهف المنزل ثم استقال فأقيل .

لكنه مع كل ذلك نابغة . فلم تكد فكرة الحال الطبيعية تملكه حتى تمددت فى خياله وأخذت عليه حسه وملأت كل وجوده فقلبها على كل وجوهها واستثمرها

فى شتى مواضع نظره وتفكيره .

ولما كان خطيباً فى كتابته قوياً فى أسلوبه وكان قد طعن على النظام المحيط به وعلى الكبراء الذين كانوا فوق المطاعن وعلى السيدات موضع تمليق الملوك والأشراف والأدباء فقد حدق الكبراء به تعجباً واحتقاراً وتطلع الناس إليه إعجاباً وإكباراً . أما السيدات فمال بهن ضعفهن إلى العطف عليه والتزلف إليه . فمال هو إلى ناحيتهم . يدفعه ولعه الجنونى بهن . ولم يمنعه طعنه عليهن ، عن البقاء فى كنفهن ، والخضوع لكل أوامرهن ، وتوثيق عرى روابطه بهن ، فجلس منهن مجلس القس المدنى يستمع لاعترافاتهن ، ويهديهن أقوم سبل الحياة ويسدى ثمين النصح إليهن ، والحق أنه ترك مجموعة نفيسة من الخطابات التى بعث بها لمستنصحاته تحوى خير الآراء فى شتى المسائل وفى التربية .

ويدلنا ما ورد فى (الاعترافات) على أن كتاب التربية لم يوضع قصداً ولا على نظام معين . وإنما « ألفت مجموعة هذه الملاحظات والتفكيرات الخالية من الترتيب والتتابع إجابة لرغبة أم صالحة قادرة على التفكير . وقد شرعت أول الأمر فى وضع مذكرة من بضع صحائف ثم استهوانى الموضوع بالرغم منى فأصبحت المذكرة أشبه بكتاب هو لا شك ضخم بالنظر إلى ما يحتويه ولكنه صغير جداً بالنسبة للموضوع الذى أعالجه . . . وسيكون ما أذكره عن أهمية التربية الصالحة قليلاً . كذلك فلن أقف لإثبات فساد التربية الحاضرة فقد أثبت ألف غيرى ذلك من قبل وليس من شأنى أن أحشو كتاباً بما يعرفه الناس جميعاً . وإنما أرى أن صيحة ارتفعت من زمان بعيد ضد طرائق التربية الحاضرة ولم يعن أحد باقتراح ما هو أحسن منها » . .

إذن فقد وضع الكتاب بادئ الرأى إجابة لرغبة سيدة من سيدات روسو . وضع ليكون مذكرة ثم امتدت صفحاته إلى الألف عن غير شعور من مؤلفه . . وضع كما وضعت الهلويز سداداً لغرام روسو بالنساء ثم امتدت صفحاتها إلى الألف دفاعاً عن روسو وتحبيذاً له وتمجيداً لحياته .

وكما كان سان پرى صورة لروسو ، فسيكون أميل ومؤدب أميل صورة لروسو أيضاً . وكما كانت نقائض سان پرى وسيلة سما بها إلى ذروة الفضيلة التى سما روسو إليها ، فسيكون أميل صورة روسو فى صغره وستكون تربية أميل مشابهة

لتربية روسو وسيصير أميل رجلاً فاضلا مثلما صار روسو رجلاً فاضلاً . وليس فى ذلك كله من عجب . فقد كان روسو يتوهم نفسه مثلاً أعلى لصورة الكمال الأكمل

استهل روسو كتاب التربية بكلمته المشهورة « يخرج كل شيء حسناً من بين يدى مبدع الكائنات ثم يعتوره الفساد والنقص بين يدى الإنسان . فهو يكره أرضاً على أن تغذو نبات أرض أخرى وشجرة أن تحمل ثمر شجرة أخرى . وهو يخلط الطقوس والفصول ويخصى كلبه وحصانه وعبده ويقلب كل شيء ويفسد كل موجود ، وهو يحب الشوه ويهوى الشناعة ولا يرتضى شيئاً على ما صورته الطبيعة ، حتى ولا الإنسان . بل هو يريده مهذباً كما يحب كأنه حصان الملعب . ومشذباً كما يريد كأنه شجرة فى حديقته » .

عارض روسو فى هذه الجملة ما بين سنة الطبيعة وسير الاجتماع وندد فيها بالحضارة وما تجر إليه من تشويه وإفساد وإتلاف . وهذا التشويه والإتلاف هو أساس المدنية وأساس تعس الإنسانية . ولو أن الإنسان لم يسترسل مع كاذب غروره يريد إصلاح ما جعلته يد القدر صالحاً بطبعه لظل الناس فى سكينتهم ولما نزلت بهم مصائب الهم والفاقة والتعس فليرجع الناس سيرتهم الأولى حتى يرجع إليهم نعيم الطبيعة .

والتربية هى وسيلة الرجعة « فنحن نولد ضعافاً فتحوجنا القوة ، ومحرومين من كل شيء فتحوجنا المعونة ، وبلهاء فيحوجنا الحكم والتقدير . وكل ما ليس لنا يوم نولد ونحتاج إليه حين نكبر إنما نحصله بالتربية . والتربية تحصل لنا من الطبيعة ومن الناس ومن الأشياء . فالنمو الداخلى لقوانا وأعضائنا يتأتى من تربية الطبيعة . ومعرفة الوسيلة للاستفادة من هذا النمو تتأتى من تربية الناس . ومحصول تجاربنا الذاتية عن الأشياء التى تحيط بنا إنما نحصله من تربية الأشياء » . فإذا نحن وجهنا هذه الوسائل فى سبيل الطبيعة حصل لنا الرجل الطبيعى على أتم معانيه .

لذلك يجب أن تكون غاية التربية عن أى طريق وصلتنا أن تنمى فى الإنسان من الملكات ما يستطيع معه مكافحة الحياة بقوة وصلابة وشدة وأن تقوى ذاتيته إلى أقصى الحدود . وتلك غاية تتناقض مع ما ترمى إليه التربية الحاضرة تمام التناقض . فإنما توجه هذه التربية الحاضرة كل عنايتها لتصقل الفرد فى سلك

الجماعة وتشذب من ذاتيته مخافة أن يتنافر إبداع نظام الاجتماع . وتلك تربية تعسة تسلب المرء أكبر نعم الحياة . فهى تسلبه قوة الجسم إذ تحبسه بين الجدران مع القواعد والسيدات ، وتسلبه ملكة التقدير إذ تجعله لا يرى بعينه ولا يسمع بأذنه وإنما يرى بعين المحيطين به ويسمع بأذنهم . وتسلبه دقة النظر فى الأمور إذ تأخذ الجماعة عليه وقته ولا تدع له منه إلا بمقدار يسمح له بتكوين رأى سطحى عن الأشياء يكفى ليسر به الجماعات وليكون به رقيقاً محبوباً لظرفه ولكياسته ولنفاقه .

هذا الفرد المصقول يفنى فى الجمعية ويعيش لها على خلاف رجل الطبيعة الذى يعيش لنفسه . ومتى عاش الإنسان للجمعية وخضع لنظاماتها انعدمت ذاتيته وحلت شخصية نسبية مكانها . وهذه الشخصية النسبية تذهب بالفرد إلى الاعتقاد بعدم وجوده كفرد وبتمام ارتباطه بالجمعية التى هو جزء منها .

ذلك تعس لا تعس بعده . أتريد دليلاً لروسو على ذلك ، لقد بلغ من أثر هذه التربية فى النفوس أن أصبحت الوطنية كبرى الفضائل الإنسانية وصارت الذاتية القوية كريهة عند الناس فأطلقوا عليها أسماء الأثرة وحب الذات واعتبروها من شر النقائص . ثم صرت تراهم يتغنون بأحاديث الذين هانت عليهم نفوسهم فى سبيل الجماعة أياً كان نوع هذا الهوان فيتغنون بحديث القدمونى بداريت تقدم إلى عضوية مجلس الثلثمائة ففشل فعاد فرحاً بفشله مطمئناً أن كان فى وطنه إسبرطة ثلثمائة رجل خير منه . وبحديث إسبرطية خرجت تنتظر أخبار معركة لها خمسة أبناء بين المحاربين فيها . ولما عاد بعض الجند سألته وهى ترتعد ، فأخبرها أن أبناءها الخمسة قتلوا . فصاحت به : ما عن هذا سألتك أيها العبد الزنيم ! فلما علمت بأن النصر تم لقومها طارت إلى المعبد تشكر الآلهة .

هذا النوع من التربية هو عند روسو إغراق فى تقديس الجماعة على حساب الفرد بما يخالف سنة الطبيعة ، وإنما تقضى الطبيعة بتربية الإنسان ليكون رجلا لا ليكون رومانياً ولا فرنسياً ولا مصرياً كما تقضى بأن لا يعلم صناعة خاصة . بذلك تراه إذا صار رجلاً صار صالحاً لكل مركز يضعه الحظ فيه . « وأحسننا يومئذ لخير الحياة وشرها احتمالاً هو عندى أحسننا تربية وخيرنا مكاناً » .

فإما أن يكون غرض التربية الأسمى تكوين الإنسان لحسن احتمال الحياة فذلك ما يقره أهل هذا الجيل الحاضر . . . ولقد انتشرت الفكرة بعد ما كتبها

روسو وصرت تقرؤها فى كل كتب التربية كأنها بعض بديهيات الموضوع . وهى لم تكن غريبة فى عصر روسو لكنها كانت ظريفة بتناقلها الخاصة . حكت مدام دبناى فى مذكراتها أنها زارت المسيو لينان (Linant) مهذب ابنها ومعها المسيو دكلو (Duclos) . وقد ناقش دكلو المعلم فى أمر تربية الطفل وقال له : علمه قليلاً من اللاتينية ولا تعلمه اليونانية أبداً فليس فيها له أى فائدة . ونحن لا نريد به أن يكون إنجليزيًّا أو رومانيًّا أو مصريًّا أو يونانيًّا أو إسبرطيًّا وإنما نريد به أن يكون رجلاً صالحاً لكل شيء .

وأما رغبة روسو عن أن تغرس التربية فى نفس الطفل حب وطنه فلا تعدو فكرة الاشتراكيين . وهى فكرة لم تتحقق بعد . وقد لا تتحقق أبداً ولو تمت على الأرض كلمة الاشتراكية إلا أن تصل التربية من توسيع أفق نظر الناس جميعاً حتى يصبح العالم كله وطناً لهم .

ولم يك روسو مؤمناً بهذه الفكرة . فإن ما كتبه فى التربية قبل (أميل) وبعده ينقضها وينفيها . ولعل ما رأينا من مظاهر هيام سان پرى بسويسرا فى رواية الهلويز ما يدلنا على مبلغ عشق روسو لوطنه . كذلك جاء فى مقال الانسيكلوبيديا عن الاقتصاد السياسى ما يأتى : « إذا ربى الأطفال جميعاً فى أحضان المساواة وأشربوا احترام قوانين الحكومة والقواعد العامة . وأحيطوا بأمثال وأشياء لا تنفك تناجيهم باسم الأم الحنون التى تغذوهم ، ولا تفتأ تحدثهم عما تحمله لهم فى حناياها من الحب وما ينالونه منها من خير لا يقدر ، وما يجب عليهم لها فى مقابل ذلك كله ، إذن لرأيتهم وقد أدركوا كيف يحبون بعضهم بعضاً محبة الأخ لأخيه ، وكيف يقفون بإرادتهم عندما تريده الجماعة » . وهو أكثر قوة عند كلامه عن هذا الشأن من شئون التربية فى خطابه عن حكومة بولونيا . فقد قال فيه : « يجب أن تطبع التربية النفوس فى قالب الصورة الوطنية وأن توجه الأفكار والأذواق وجهة تجعلها وطنية بالميل وبالشهوة وبالضرورة . ولذلك يجب أن يفتح الطفل عينه أول ما يفتحها على وطنه ، ثم لا يرى شيئاً غيره إلى أن يموت . وكل جمهورى صادق يرضع محبة وطنه مع لبن أمه ويولع لذلك بمحبة الشرع والحرية . وهذا الحب هو قوام حياته . فإذا انفرد أصبح صفراً . وإذا لم يبق له وطن لم يبق له وجود فإن لم يمت بعد ذلك فهو شر من الميت » .

إذن فرأى روسو هو ضرورة توجيه التربية وجهة وطنية صادقة ، وأن لاحد للغلو فى هذا السبيل . ذلك رأيه قبل كتاب التربية ورأيه بعده . لذلك نرانا فى حـــل من القول بأن الرأى الذى أورده فى كتاب التربية لم يكن إلا رأياً عارضاً ربما كان سببه سوء استقبال كتابه عن المناظر فى مدينة جنيف .

ونحن نعتقد ذلك لأن روسو كان وطنياً صميماً . وهو لم يولع فى حياته بشىء ولعه بكل ما فى سويسرا . فكانت مناظرها وحكومتها وبساطة أهلها ونوع عيشهم أمثالا عليا فى نظره لما يجب أن يكون . ألا تراه بعد ارتداده عن البروتستانتية إلى الكثلكة وبعد عيشه السنين الطوال مع مدام دفارانس وبعد إقامته فى باريس لم يلبث أن فكر فى استرداد حق مدنيته فى جنيف حتى رجع إلى دين قومه وبقى عليه بقية حياته ودافع عنه خير دفاع ؟ فكيف به ينزع إلى الطعن على الوطنية إلا أن يكون ذلك نزعة عارضة سرعان ما زالت بزوال سببها العارض هو الآخر .

لذلك كان عجيباً أن يطعن فى كتاب التربية على التربية الوطنية ، وأعجب منه أن يدافع عن رأيه العارض بكل قوته . وما نود له أن يكون سوء استقبال كتابه عن المناظر فى جنيف هو سبب ثورته . وإنما نعتذر عنه بأنه أراد أن يبنى التربية على قواعد الطبيعة والطبيعة لا وطن لها . والقارئ فى حل من تقدير قيمة هذا العذر .

فأما نحن فنريد قبل الانتقال من هذه النقطة للخوض فيما رسمه روسو طريقاً للتربية أن ندلى برأينا وأن نشير إلى خطأ هذا الرأى العارض وأن نقول بوجوب إرضاع الطفل حب وطنه مع لبن أمه . فإنما التربية طبع صورة حياة المجموع فى نفس الفرد على خير ما يضمن سعادة المجموع والفرد معاً . ومن باطل الغرور توهم قيامها بما سوى ذلك . وعليه فما دام فى العالم أمم مختلفة متنافسة فيجب على أهل كل أمة أن يدافعوا عن حدودها وأن يضحوا فى هذا الدفاع بكل ما عندهم . ولا يتأتى ذلك إلا إذا هم أحبوا بلادهم أكثر من حبهم أنفسهم . . وتلك هى الوطنية .

قد يقول بعضهم إن هذا الخلاف وتلك المنافسة شرور يجب محوها من العالم . ولكن على رسلكم أيها القائلون . إنكم ترجعون إلى النظريات القديمة التى ترى للمطلق وجوداً فى الواقع وتقرر قواعد الخير والشر والحق والباطل وتقصدون مما تقولون إلى طبع النفس الطفلة الخالية من كل معنى بطابع هذه المعانى . ولكن هذه النظريات وتلك المعانى المطلقة دخلت اليوم فى حكم الخيال الشعرى يرتكن عليه

أمل الإنسانية فى طموحها إلى الأمام ولا يركن إليه علم يستمد وجوده من الواقع . ويجب أن تكون التربية علماً واقعياً بعيداً عن صور الخيال والوهم . وأفكار الإخاء العام والدولية الهادمة للحدود والعالم كوطن لكل بنى الإنسان لا تزال فى حيز الأمل نرجو أن نحققها . لكننا لا نستطيع أن نمنع عن الناشئ العلم بما هو حاصل وبوجود الأمم وتنافسها .

إنا نكتب ما نكتب الآن والألم يحز فى نفوسنا وكلنا الأسف أن خلقنا فى عصر تعس كله الأثرة والظلم . ولكنا يجب أن نواجه الواقع إذا أردنا التأثير فيه . يجب أن نعلم أن التربية التى ننشئ أبناءنا عليها ليست هى كل شىء فى تكوين حياتهم . إنما هى حلقة من حلقات لا عدد لها متصلة كلها متشابكة بعضها ببعض ، مجموعها هو مجموع عوامل حياة الاجتماع الإنسانى . ويجب أن تكون هذه الحلقة متسقة الجوانب مع غيرها من الحلقات حتى تثمر وإلا كانت وهماً فى الوجود لا أثر له .

أتريد على ذلك دليلا . ها هم أولاء الاشتراكيون أنفقوا جهوداً طائلة فى سبيل هدم الحدود بين عمال العالم ليكونوا جميعاً أمة واحدة ، فما لبثت الحرب أن استعرت فى سنة ١٩١٤ حتى نزلوا عن فكرتهم وحتى كرسوا جهودهم للدفاع عن أوطانهم . ذلك بأن فكرتهم لم تكن متسقة مع صورة الوجود وإن كانت فكرة ملايين عدة من رجال العالم . . فكيف يمكن إذن أن تضعها قاعدة للتربية ولا تخشى إفلاسها .

ليست التربية هى الأساس الأول لتطور العالم وسيره نحو الكمال . إنما ذلك الأساس الأول هو مجهود العقول الناضجة الذى يوجه الجماعة الإنسانية فى سبيل من التطور البطىء يدفعها إلى غاية من الكمال أو النقص ليس فى مقدور علم الإنسان وهو على ما لا يزال عليه من ضعف وعجز أن يتكهن بها . وهذا التطور البطىء لا ينتقل بالإنسانية خطوة إلى ما بعدها إلا أن تكون مرتبطة بها ارتباط الحاضر بالماضى وارتباط المستقبل بهما جميعاً . ولا نزال نرى بعيداً ذلك اليوم الذى تندك فيه حدود الأمم وتمتزج فيه الأجناس واللغات وتتحد العقائد والمصالح . ومادام ذلك باقياً ويمكن أن يثير نزاعاً وحرباً فسيبقى التعصب كميناً فى النفس الإنسانية ، والوطنية ليست إلا عقيدة وإيماناً تحتمل التعصب له .

لذلك كله رجع روسو عن رأيه الذى دافع عنه فى كتابه التربية وعاد إلى وجوب إرضاع الطفل حب وطنه مع لبن أمه . ولا يقصد روسو ولا نقصد نحن من ذلك إلى أن تقصر التربية همها على تكوين العقيدة الوطنية فى نفس الناشئ . بل يجب أن تقيم فى نفسه إلى جانب الاستعداد التام للحياة التى يعيشها معنى سامياً مما يجب أن يسود بين الناس من الإيمان بالإنسانية وبحقوق الإخاء بين بنى آدم وبضرورة التسامح والتعاون والتضامن بين الأمم كما يجب أن تنمى فى نفس الطفل صفات الرجولة والشهامة والاعتماد على النفس وعدم الاعتداء بمعونة الغير ولا الاستكانة لحماية الجمعية « فليس العيش كما قال روسو أن نتنفس ونحن رقود ولكن العيش أن نعمل وأن نستعمل كل أعضائنا وقوانا وحواسنا وكل ما يجعلنا نشعر بأننا نعيش . وليس أطول الناس عمراً أكثرهم فى السنين عدداً بل أطولهم عمراً أشدهم للحياة إدراكاً وأكثرهم بالحياة شعوراً وإحساساً » . . لكن تضامن بنى الوطن الواحد مقدم على تضامن الأمم المختلفة كما أن التضامن بين أفراد البيت الواحد مقدم على التضامن بين مجموع أهل المدينة . فإذا احتكت أمتان وجب أن ينتصر بنو كل أمة لها مهما كلفهم هذا الانتصار من تضحية .

ذلك رأينا يشترك فيه قلبنا وعقلنا وهو عندنا وحى الطبيعة وإلهام الحياة .

* * *

الآن ننتقل لنرى ما رسمه روسو طريقا للتربية .

كنا نتوقع أن تتجه عناية روسو رسول المساواة ونصير الضعفاء والفقراء إلى تربية سواد الشعب الذى كان مهملاً فى ذلك العصر فى فرنسا إهماله اليوم فى مصر . وكنا ننتظر منه أن يبين الوسيلة لتعميم التربية بما يسمح لجميع الأطفال بحظ منها يؤهلهم لمكافحة الحياة وللعيش مع الجماعة عيشاً مدنياً كريماً . وكنا نود لو نرى المدينة الفاضلة مشيدة عنده على أساس من تربية المجموع تربية طيبة . لكنا مع كثير من الأسف نرى كتاب روسو عن التربية خلواً من هذا كله . بل نراه يقرر أن الفقراء والضعفاء فى غير حاجة إلى التربية لأن مركزهم فى الحياة يكرههم على احتمال العيش الذى هم فيه .

ولعل ما ذكره روسو فى اعترافاته من أنه كتب (أميل) إجابة لطلب أم فاضلة قديرة على التفكير هو سبب هذا التناقض المعيب بين مركزه كمصلح ديموقراطى

وبين ما ذكره فى كتابه . فإن هذه الأم الفاضلة هى لا شك إحدى هاتيك النبيلات والجميلات ممن كان يعيش فى كنفهن ويخطب ودهن ويرجو رضاهن . كما أن ما أخذ نفسه به من الطعن على الكبراء والأشراف مع التقرب منهم والتزلف إليهم كان له كذلك أثر فى اختياره غير قليل . ولو أنه كتب رسالة عرض فيها لتربية الشعب لما عنيت جميلة من النبلاء ولا عنى عظيم من الأشراف بقراءته . وللنبيلات وللأشراف وحدهم كتب روسو من يوم علا نجمه . ومنهم وحدهم كان يتقرب وبهن وحدهن كان يولع .

وليته كتب كتابه لطبقة الأشراف جملة . كلا بل كان هذا المشرد ابن الشعب كان أرستقراطيًا أكثر من الأرستقراطيين . فرأى أن التربية الصحيحة لا تتأتى إلا بنزع الطفل من أهله وربطه مع مربيه برباط ضيق فلا يفترقان حتى يبلغ الطفل (أميل) أشده وحتى يصبح رجلا وحتى يتزوج ويولد له ولد .

وقد اختار روسو الطفل الذى أراد أن يعالج تربيته نبيلا غنياً ولد فى طقس معتدل ونشأ قوياً صحيحاً . وهو لم يقم فعلا بتربية أحد أبناء النبلاء فى ذلك العصر لأن المربى فى نظره يجب أن يكون شاباً أعزب يعرف واجبات الرجولة ويستطيع أن يلهمها الطفل من غير أن يعلمه إياها .

وكتاب التربية يتناقض فى هذا الاختيار للطفل والمربى وهذا الارتباط بينهما مع مقال الاقتصاد السياسى ورسالة حكومة بولونيا . فقد كان روسو فيهما يرى وجوب تربية الأطفال جميعاً معاً من غير تمييز بين أبناء الأشراف وأبناء سواد الشعب . وكان يرى ألا يبقى المعلمون مع تلاميذهم زمناً طويلا . وكان يرى أن تتولى الحكومة أمور التربية والتعليم . لكنه فى هذين المكتوبين كان يعرض للتربية عرضاً لا قصداً ومن غير تفكير فيما تحدثه آراؤه فيها عند الطبقات الممتازة من أثر . لذلك كان أقرب إلى الحق وأبعد عن التكلف .

على أنه كان متفق الرأى فى كتبه جميعاً على ضرورة فصل الناشئة عن الجماعة بل عن العائلة . وهو فى هذا متفق مع نفسه إذ كان يرى الجماعة قد وصلت إلى الدرك الأسفل من الفساد والانحطاط . وللمثل فى التربية أثر كبير بل له كل الأثر . فإذا ترك الأطفال وسط الجماعة أخذوا بعاداتها وأخلاقها وعقائدها وصاروا مثلها ومنها وانحطوا انحطاطها ونزلوا إلى الدرك الذى نزلت إليه .

ولروسو حق فيما يقول بعد الذى نعاه على جمعية عصره من فساد وتدهور . لكن رأيه مع ذلك لم يسلم من أكثر من اعتراض وجيه . فأنت مهما فصلت الناشئة عن الجماعة وعن الأسرة فإنك لن تمحو فيها أثر الوراثة ولا أثر الاجتماع . وإذا صحت ملاحظة دارون من أن الجنين الإنسانى يمر فى أثناء تكوينه بالتطورات الجنينية للخلائق التى تسلسل منها الإنسان فإن الطفل يمر من أول نشأته إلى حين تمام تكوينه بالأدوار التى مرت بها الجماعة الإنسانية خلال قرون الماضى الطويلة ليصل حتماً آخر الأمر إلى مشابهة الجماعة التى هو منها ولو اقتصرت المشابهة على فضائل هذه الجماعة . أما الظن بتكوين مخلوق جديد ليس بينه وبين جماعته اتصال فوهم لا يمكن تحقيقه .

وكيف يتحقق والمربى ليس إلا فرداً من الجماعة . ولم يفكر روسو فى أن يفرد فتاه فى مثل وحدة حى بن يقظان ، بل ترك للمربى أن يسير وتلميذه بين مناظر الاجتماع وأهله ، وأشرك هؤلاء الأهل — على ما سنرى — فى أطوار التربية المختلفة ، وسمح لتلميذه بقراءة بعض الكتب . فهذا كله كاف وفوق الكفاية ليطبع صورة المجموع فى نفس الطفل وفى ذهن الناشئ وفى عقل الفتى ، وكاف ليبعده عن مثال رجل الطبيعة الذى يريده روسو . وكل ما فيه أنه يضمن إلى حد ما تكوين رجل لم تدنسه النقائص لأنه لم يلامسها ، ولكنه لا يضمن حماية هذا الرجل بعد أن يترك حراً ليختلط بالجماعة من الارتكاس فى هذه النقائص . وربما كنا أميل للأخذ فى هذا الباب برأى قاسم أمين إذ يرى أن رياضة النفس على مقاومة النقائص تقوى الإرادة وتحمى من الزلة أكثر مما يحمى تجنبها والحذر منها . فقد تقترب النقائص منا من غير علمنا فلا نقوى على محاربتها لعدم تعودنا هذه المحاربة . قال : « فى ميدان الحرب لا يكون ثبات الجأش إلا عند الرجل الذى حضر وقائع سابقة ووقف أمام العدو وقاتل يوماً مهاجماً ويوماً مدافعاً ، كذلك الحال فى جهاد النفس . لا تجد ثبات الجنان إلا عند الرجل الذى عرض نفسه لاستهواء الشهوات وخدائع اللذات ، فإذا اختبرها بالتجربة وتغلب عليها بعد ذلك كسب قوة الحكم على نفسه ، وتلك هى الفضيلة الحقيقية ، خلافاً للرجل الذى احتجب عن جواذب الشهوات ، فإنه متى وجد أمام فرص مرغبة فيها لا يقاوم سلطانها إلا قليلاً ، وإذا سلم فى نفسه مرة لا يستطيع الخلاص منها » .

ونزع الطفل من عائلته فيه ، فضلا عن ذلك ، عيب حرمان الطفل من أرق معانى الحياة التى لا توجد إلا فى عواطف الأبوة والأمومة والبنوة . هذه العواطف القوية السامية الدائمة النضرة والشباب حتى فى أقسى القلوب وأجفها . والأثر المباشر الذى يترتب على حرمان الطفل من هذه المعانى هو شعوره بالجفوة واعتياده شيئاً من غلظة الكبد مع التستر بظاهر من رقة الشعور وقوة الإحساس ابتغاء نوال عطف من الناس يعوض عليه العطف الطبيعى الذى فقده . وروسو نفسه مثل حى للطفل اليتيم الأبوين . فما من أحد شعر بعطف الأمومة وحنان الأبوة ليرضى طرح أبنائه فى ملجأ اللقطاء . وما من أحد شعر بهما ثم يرضى هذا العيش المزدوج عيش النفاق الدائم الذى عاشه روسو طول حياته . ولكن روسو لم يكن ليشعر بهذا ولم يكن يتصوره ، وقد أبدع له القدر أن يشعر بأنه خير الناس وأطيبهم ليخفف بذلك عنده من ألم الشعور بصغره وحقارته . وبئس نبوغه هذا الشعور عنده . فلم يقدر مع ذلك مبلغ ما يحرم منه تلميذه بنزعه من أهله .

حبذ أفلاطون وتلاميذه الشيوعية وانتشرت تعاليمهم فى جو الإغريق . ومن نتائج الشيوعية إلغاء الزواج والعائلة ، فرد أرسطو بكلمة نوردها هنا رداً على فكرة الإفراد التى نزع إليها روسو قال : « إذا وضعت عدة نقط من الشهد فى إناء واسع ممتلئ ماء ضاع طعمها الشهى . وكذلك فإذا ألغيت العائلة ضاع ذلك المعنى الرقيق الذى يجعل لأسماء الأب والأخ إعزازاً خاصاً ، إذ يصبح ولا محل له ، وحل عدم الاهتمام المطلق محل المحبة العائلية . وهؤلاء الشيوعيون يكثرون من الماء المضاف إلى شهدهم فيضيعون منه كل طعم ومعنى » وهذا الإفراد الذى يريده روسو ينتج مثل تلك النتيجة . وكثيراً ما رأينا شباناً تشردهم الأقدار عن أهلهم وعشيرتهم فإذا شبوا بعد ذلك وكبروا رأيت العلاقة بينهم وبين أهلهم علاقة ضعيفة يستبقيها الواجب الاجتماعى من غير أن يكون فيها للعاطفة أو القلب أو الشعور أى أثر .

وجه إلى فكرة نزع الطفل من أهله اعتراض ثالث ليس أقل وجاهة من سابقيه . ذلك أن تربية الإنسان تستمر طول حياته . وللأطفال عامة وللأبناء خاصة أثر كبير فى حياة الكبار والأهل . فهم يبعثون إلى قطوب المشيب ابتسامة الصغر ويحيون فى القلب الذى جف وقسا عواطف رقيقة تجعل الحياة أكثر لذة وعذوبة .

ثم هم مركز دائرة عواطف الأسرة التى هم فيها . فهم يجمعون بين قلوب أهل هذه الأسرة بألطف جامعة تقرها الطبيعة وتدعو إليها . ويكفيك أن ترى بضع أطفال معاً يتضاحكون ومن حولهم أمهاتهم وآباؤهم وأقرباؤهم ينظرون إليهم بعيون كلها الحنان والمحبة والعطف ويتبادلون فيما بينهم مثل هذه النظرات وينسون خلال ذلك مصالح الحياة التى كانوا يقتتلون من ساعة مضت بسببها . وهم فى أثناء وجودهم مع الأطفال يترفعون دائماً عن مقارفة النقائص كبراً عن أن يراهم الصغار فى صغائرهم وحرصاً على تقديم المثل الطيب للناشئة التى يريدونها مثال الكمال . فهذه العواطف الطيبة وهذه التربية المتبادلة بين الجيل المتدرك إلى الماضى والجيل المتدرج إلى المستقبل لا تكون إذا أخذ بنظرية روسو وأفرد الطفل يتيماً من أهله وأسلم إلى شاب مهما كان من رجاحة عقله فهو لا يشعر فى حنايا قلبه بعشر معشار ما يشعر به أهل الطفل نحوه .

على أن المعلم أو المربى لن ينتزع الطفل من أهله قبل انقضاء زمن الطفولة حينما تكفل المرأة وليدها وتحضنه ، وقد كان المتبع بين أهل الطائفة التى كتب روسو كتابه لها ألا تعنى الأمهات بالأبناء بل يسلمنهم للمراضع وللخدم لتبقى السيدة فى قصفها وترفها ورفاهها . فحمل روسو على هذه العادة حملة شديدة ألجأت السيدات لإرضاع أطفالهن . وقد غلون فى ذلك حتى كن يرضعنهم فى مقاصير مسارح التمثيل ما بين فصل من الرواية وفصل آخر .

ولعل أبدع فصول كتاب التربية هو الفصل الأول الذى يختص بملاحظة الطفولة . فقد عنى روسو فيه بنقد المتبع وبتقرير ما يلزم عناية دقيقة . وظاهر سلفاً أن ما يلزم هو أن يترك الطفل حراً كما أبدعه الخالق حراً . ولكن حكمتنا المدنية قضت مع كثير من الأسف أن « يولد الإنسان عبداً وأن يموت عبداً . فهو يوم يولد يخاط فى القماط ويوم يموت تقفل عليه أخشاب النعش وهو بين هذين اليومين مقيد بأنظمتنا وإن ظهر بالمظهر الإنسانى » .

وليس من شأن القماط وما إليه من الأربطة إلا أن يعيق جرى الدم وأن يضعف الطفل ويمنعه من النمو ويغير كيانه . وهذا كله يؤثر تأثيراً مباشراً على طبائع الطفل وأخلاقه ، ولو أنه ترك وشأنه وترك له من حرية الجسم ما يشجعه على الحركة لنما نموا طبيعياً صحيحاً معقولاً ولنمت غرائزه الطيبة مع نمو جسمه ثم لما احتاج إلى طبيب مدى حياته .

وروسو لا يحب الطب ويزعم أنه مظهر من مظاهر المدنية كالعلوم والفنون وكالفلسفة وأنه لذلك قد أفسد على الناس تصورهم للحياة شر إفساد : « ولو أنك أردت الناس ذوى الشهامة فابحث عنهم فى الأماكن التى لا يغشاها الأطباء وحيث يجهل الناس آثار الأمراض فلا يفكرون فى الموت . فقد جبل الإنسان على احتمال الألم صابراً وعلى الموت مطمئنًّا لكنهم الأطباء بأوامرهم والفلاسفة بقواعدهم والقسيسون بدعوتهم هم الذين يستذلون قلبه ويفسدون عليه مماته .

« فليكن تلميذى إذن فى غنى عن كل هؤلاء الناس وإلا رفضته . فما أريد أن يفسد على أحد عملى وإنما أريد أن أربى تلميذى وحدى أو لا يكون لى أى شأن فى أمره . وقد نصح الحكيم Locke لوك بعد ما أمضى شطراً من عمره فى دراسة الطب ألا يعطى الطفل دواء على سبيل الحيطة ولا لما قد يطرأ على صحته من انحراف خفيف » .

وما كان أغنى الأطفال عن كل دواء لو أن أمهاتهم عنين بهم العناية الواجبة ولم يتركنهم للخدم والمراضع يفسد الأولون ملكاتهم الخلقية كما تفسد الأخيرات صحتهم واستعدادهم الطبيعى . وليت هاتيك الأمهات حين فرارهن من أقدس واجب عليهن ألقين تبعته على من يكون فى حلولهن محلهن الخطر الأقل فاخترن المراضع وعنين من غذائهن ورياضتهن وحالهن بما تجب العناية به . بل هن يتركن كل ذلك للمصادفات ويتركن الطفل للظئر تفعل به ما تشاء . وأنى لامرأة تغذو غير وليدها أن تسيل فى روحه البريئة عواطف الأمومة الرقيقة مع لبنها المشترى . أم أنَّى لامرأة أن تجد مع غير وليدها صبر الأم وحنانها . فإذا لاحظت كذلك أن هاتيك المراضع الأجيرات هن من طبقة أدخل الإهمال أو الظلم أو فساد النظام أو ما شئت فسمه الضغن والحفيظة إلى نفسها ومنع عليها سبيل سمو النفس الذى يجب لكل من تربى طفلاً تسنى لك أن تقدر مبلغ الفساد الذى تحاط به نفس الطفل من يوم يولد .

ولم يدر بخلد روسو حين وضع كتابه أنه سينتج من الأثر ما يجعل طائفة من النبلاء تقلع عن عاداتها . فعنى عناية خاصة بما للظئر وعليها . واستطرد فى ذلك بإسهاب وإطالة . ولا عجب فإنما لهذه الطائفة دون سواها كان يكتب . لكن هذه الطائفة انقرضت بانتشار الديموقراطية وأصبح نبلاء عصرنا هم أصحاب المال . وليس

من شأننا أن ننصح لهم فمالهم خير ناصح ما دام للمال الحكم والسلطان وما دام كل شيء بالمال يشترى حتى الذمم والضمائر .

على أن واجب الأم فى التربية ليس أكبر من واجب الأب . فهما شريكان فى احتمال التبعة كما أنهما شريكان فى المتاع بالنتيجة . ولقد عبر روسو عن ذلك بحرارة وتألم دفع بعض النقاد إلى القول بأنه ادكر جرمه القديم حين ألقى بأبنائه الخمس تباعاً فى ملجأ اللقطاء ، ورأى نفسه فى منحدر العمر وسط صحراء المدنية المجدبة فى نظره وحيداً منفرداً كالشجرة الجرداء سقطت أوراقها وتهشمت فروعها وبقى الجذع قائماً يلقى العاصفة بكل قوتها وكل قسوتها . قال : « كل أب يطعم أطفاله لا يقوم إلا بثلث واجبه . ذلك بأنه مدين بالرجال لجنسه ، وبالرجال الاجتماعيين للجماعة ، وبالرعايا للحكومة ، وكل أب يستطيع أداء هذا الدين ثم لا يفعل فهو أثيم ، وهو أكبر إثماً إذا أداه منقوصاً . ومن لم يطق اداء واجب الأبوة فحرام عليه أن يكون أباً . . ولن يعفى أب من إطعام أطفاله وتربيتهم فقر أو عمل أو جاه . وإنى لنذير كل ذى فؤاد يهمل أياً من واجبات الأبوة المقدسة أنه سيسكب على خطيئته طوال الدهر دموعاً مرة ليس إلى العزاء عنها سبيل » .

* * *

والآن فما هى القواعد التى يجب أن تسير عليها الأم وأن يتبعها الأب فى معاملة أبنائه أول نشأتهم ؟ لعل القارئ يذكر ما أشرنا إليه عند تحليل الهلويز من ضرورة إقناع الأطفال بأنهم أطفال وأنهم لذلك فى حاجة ماسة لكل من حولهم حتى من الخدم والتابعين . ثم لعله يذكر أيضاً ما أشار إليه روسو فى روايته من ضرورة التزام الأطفال الطاعة لما يؤمرون به من غير مناقشة ولا شرح ، وأن تكون طاعتهم عن رغبة ورضا أكثر منها عن رهبة ومذلة . وأن يتركوا أحراراً فى اتصالهم بالأشياء المحيطة بهم واستفسارهم إياها واستنتاجهم لأنفسهم منها . وعدم التدخل فى ذلك ولو قصد تعديله مهما بلغ فى الخطأ على أمل أن يردهم استنتاجهم الشخصى عن خطئهم فيكون أكبر عظة وأبلغ فى نفوسهم أثراً .

ويجب أن يتمتع الأطفال بهذه الحرية وألا يحرموا منها إلا عند خشية الخطر

أو الأذى العظيم وألا يعوقها عائق سلبي ولا إيجابى . فكما لا يصح أن يمنع الطفل عن الحركة أو عن الاقتراب من الأشياء وامتحانها بالحس ومعرفة ما يحيط به كذلك لا يجوز أن يدفع بالطفل فى سبيل حركته لأكثر مما تمكنه قواه . أفرأيت هاتيك الأمهات والمراضع يجهدن أنفسهن ويجهدن الطفل بغية تعويده المشى آملات أن يسرع به ذلك إلى القدرة عليه . هن إنما يضعن عقبات فى طريقه وكثيراً ما يجلبن عليه التلف ، وهن بلا شك يعقن تقدمه إلى السير بنفسه . ولو أنهن تركنه وشأنه يعالج الحركة ويعتمد على الأشياء المحيطة به ويسعى بنفسه لتقليد الكبار فى السير لكان فى تقليده أكثر إتقاناً ولما عاق نمو أعضائه ولعملت الطبيعة لخيره أكثر ألف مرة مما تعمله أمه أو ظئره التى لا تستطيع بمقاومتها الطبيعة أو إرهاقها إياها إلا أن تفسد ما كان صالحاً .

وذلك هو الشأن أيضاً فى أمر التكلم . فإن الحرص على أن يسرع الأولاد إلى النطق يجنى عليهم ويؤخرهم أكثر مما يقدمهم فيه . فإذا هم بدءوا النطق ظلوا يستعملون العبارات السقيمة إلى ما بعد الخامسة أو السادسة . والعلة فى ذلك عند روسو (أن أطفال المدن الذين يربون فى غرفة ويبقون طول الوقت تحت جناح معلمتهم ليسوا فى حاجة لأكثر من تأتأة بسيطة كى يفهمهم المحيطون بهم . فهم لا يكادون يحركون شفاههم حتى يعنى من حولهم بالاستماع لهم . . أما فى الريف فالأمر مختلف . ذلك بأن الريفية ليست على مقربة من ولدها دائماً . فهو مضطر أن يقول ما يريد مفسراً وبصوت مرتفع حتى تستطيع سماعه) . فالخير إذن أن يتركوا بادئ الأمر ينقلون من الألفاظ ما سهل عليهم نقله ومتى حلا لهم نقله ثم أن يعاملوا بعد ذلك معاملة عادية صرفة لا مبالغة فيها لهم أو عليهم .

وهذا هو ما يسميه روسو التربية السلبية التى يجب اتباعها مع الطفل فى السنين الأولى من حياته . فلا يجوز أن يلقن شيئاً ولا أن يلقى إليه بشىء مطلقاً . بل هو يترك للأشياء يعالجها وتعالجه . وهل خطر الحياة إلا معالجة الأشياء والتغلب عليها . فاعتياد الطفل ذلك من نعومة أظفاره وإمعانه فيه حسب تكوينه الذاتى ضمين بتربية إرادته ، ضمين باستظهار القوى والملكات الخاصة الكمينة فيه . (فإن لكل فرد يوم يولد – وهذا ما قاله روسو فى هلويز الجديدة – فضلا عن تركيب الجنس العام ميولا خاصة توجه نبوغه وتعين خلقه) وليس عمل التربية أن نغير هذه الميول

أو نحورها فذلك ليس فى مقدورنا وإنما بالتربية نكونها ونكملها . ولما كانت الميول الأصلية طيبة بطبعها فإن هيناً أن نصل بها إلى غاية حسنة ما دمنا نوجهها توجيهاً حسناً . أما إن نحن أخذنا فى التربية بوسائل العسف وأردنا أن نكره كل الأفراد – وبين ملكاتهم ما بينها من عظيم الاختلاف – على السير فى طريق واحدة والتكون على شكل واحد فلن يكون من وراء ذلك إلا اضطراب ملكات الجميع اضطراباً يعدمها ويجنى على النبوغ وينزل بكل النفوس إلى درك الحقارة . وذلك هو العكس مما يجب أن يكون .

وقد غلا روسو عند تعريفه التربية السلبية غلوًّا كاد يجعلها مستحيلة التحقق فى الواقع فقال : يجب أن تكون التربية الأولى تربية سلبية وليست هذه التربية أن يعلم الطفل الفضيلة أو الحق ، ولكن أن يحمى قلبه من الرذيلة وعقله من الباطل . ولو أنك استطعت ألا تصنع شيئاً وألا تدع شيئاً يصنع حول تلميذك وكفاك أن سرت به سليماً معافى قوياً حتى إذا به فى الثانية عشرة من عمره ولا يكاد يميز اليد اليمنى من اليد اليسرى إذن لتفتحت عيون بصيرته للحق من أول دروسك ولما عاقت عادة أو عقيدة ملقنة عنايتك عن أن تبلغ غايتها . ثم إنك لتراه بعد ذلك أحكم الناس وترى أن بدأك تربيته بألا تصنع شيئاً قط أدى إلى معجزة من معجزات التربية » . . فلما صودر كتابه ورد على المصادرة بخطابه البديع للمسيو بومون رئيس أساقفة باريس قال : « والتربية السلبية هى التربية التى ترمى إلى كمال الأعضاء – وهى أدوات علمنا – قبل أن يصل إلينا العلم عن طريقها . والتى تهيؤنا إلى العرفان برياضة حواسنا ، وليست التربية السلبية من تافه الأغراض ، فإنها تعد الطفل لتمثل كل ما يصل به إلى الحق حينما يكون فى مقدوره عرفانه وإلى الجميل متى استطاع أن يحبه » .

وقد وفق روسو فى وجوب تطبيق هذه التربية السلبية تطبيقاً دقيقاً سواء فيما يتعلق بفتح عيون الطفل للمعلومات وفيما يتعلق بتقويم خلقه . وإنك لتجد فى كتابه من هذا التدقيق الشىء الكثير : فلا تلق على تلميذك أى نوع من الدروس اللفظية إذ يجب أن يفيد دروسه من التجارب . ولا توقع عليه أى عقوبة لأنه لا يدرك بعد الخطأ . ولا تطالبه أن يستسيحك عفواً فهو لا يتصور إهانتك . وما دام لا يعرف أى مقياس خلقى لأعماله فهو لا يستطيع أن يأتى سيئة خلقية تستحق الجزاء أو التوبيخ .

على أن هذه التربية السلبية وغايتها كمال الأعضاء ورياضة الحس والوصول بالطفل قوياً سليماً إلى سن التبصر والعقل تقتضى رياضته رياضة بدنية بمقدار عظيم ، وهذا ما عنى به روسو ولم يهمله لحظة خلال كتابه . فهو فى كل وقت يسير بالطفل فى الأحراش والثلوج والحدائق ويصعد الجبال ويهبط به البطون ويعوده المشقات ولا يفتأ يقدم لناظره من بدائع مناظر الطبيعة ما يخلق عنده عشقها والولع بها . . وهو فى هذه وفى غيرها مما يقدمه لتلميذه من وسائل التربية إنما يقدم للناشئة مثلا من تربيته هو . وهو فى أميل كما كان فى الهلويز إنما يقص حكاية نفسه ويروى وقائع حياته مثبتاً أن خير ظروف الحياة الإنسانية هى تلك الظروف التى مر هو بها والتى يأنف أكثر الناس أن يشهدوها فضلاً عن قبول . اجتيازها ، ولكنها على الرغم من ذلك كونت بل خلقت جان جاك . وجان جاك صورة النبوغ وصورة الفضيلة . لذلك كانت بالرغم من كل الناس خير الظروف لتخريج خير الناس .

هذه الحركات الكثيرة وهذا الطواف والتجوال وهذه المشاهد التى تقع تحت نظر الطفل تقتضى منه احتكاكاً بها قد يحتاج إلى صدور أمر المربى له باجتنابها أو بعدم مزاولتها ، كما قد تستدعى من الطفل حين عجزه عن استفسارها أن يستفسر عنها مربيه فبم تقضى التربية السلبية فى الحالين ؟

ما تحسب القارئ فى شك من الجواب . فإن الطاعة المطلقة أساس من أسس التربية الأخلاقية . ولا يجوز للمربى أن يجعل أمره للطفل موضع مناقشة وأخذ ورد لأن الطفل لا يستطيع أن يقدر سلسلة الأسباب والنتائج التى تدور فى نفس المربى ولا يستطيع إذا عرضت عليه أن يفهمها . فإذا هو عود الأخذ والرد فيما لا يفهم تعود الجدل السفسطائى غير المنتج وقدر لنفسه فوق مكانتها وحسب نفسه مساوياً لمربيه فداخله الغرور وفسدت فيه خير الملكات . وليس يقصد بهذا ألا يقدم المربى سبباً للأمر الذى يصدره . ولكنه يكون أكثر دقة إذا هو قدم السبب قبل أن يسأل عنه . فإذا سئل اكتفى بما قدم حتى يفهم الطفل أنه لا يطيع طاعة عمياء وأنه إنما يخضع لضرورات الطبيعة التى يخضع لها مربيه .

وذلك هو الشأن فيما إذا استفسر عن شىء لم يفهمه . فمتى قدم له تفسير ما يسأل عنه وجب أن يكون ذلك التفسير فوق المناقشة حتى لا يكون فى شك من

الأسباب التى تقدم له وحتى لا يصل بكثرة الأخذ والرد إلى تعود السفسطة الكاذبة .

ولعلنا نرى بعد ذلك مبلغ ما فى تعريف روسو للتربية السلبية من إغراق . فلن تقف طلعة الأطفال عند حد ولن يصل طفل إلى الثانية عشرة ولا يميز بين يمينى يديه ويسراهما إلا أن يكون أبله بالغاً فى البله . وقد رأينا أن الطفل الذى يريده روسو تلميذاً له ليس بالأبله ولا بالسخيف .

على أن روسو قد ابتعد عن تعريفه للتربية السلبية بمحض اختياره . فقد رأى أن يرتب الأشياء حول تلميذه وأن يهيئ الظروف على طريقة تضمن وصول الطفل إلى معلومات خاصة يستحيل عليه أن يصل إليها إذا ترك ونفسه . ورأى ذلك من أول ما عهد إليه بالطفل يربيه فقال :

« إذا عهد إلى بسياسة طفل كالذى وصفت – أى طفل صحيح قوى غنى – إذن لقلت فى نفسى : إن الطفل لا يناضل الأشخاص ولكنه يناضل الأشياء . فهو سرعان ما يقف بالتجربة عند احترام كل من كان أكبر منه سنًّا أو أكثر منه قوة . أما الأشياء فلا تستطيع أن تدفع عن نفسها . لذلك كانت الفكرة الأولى التى يجب عرضها عليه هى فكرة الملكية أكثر منها فكرة الحرية . ولتكوين هذه الفكرة عنده يجب أن يكون له شىء ملكه . وليس يجدى فى ذلك أن تذكر له ملابسه وفرشه ولعبه . فهو وإن تصرف فى هذه الأشياء لا يعرف كيف ولا لم كانت له . فإذا أنت قلت له إنها أعطيت إليه فإنك لن تقدمه شيئاً فإن العطاء يقتضى الامتلاك . وإذن فقد كان ثمت ملك سابق على ملكه . ونحن إنما نريد أن نفسر له أساس الملك . كل ذلك فضلا عن أن العطاء والهبة أنواع من الاتفاق ، والطفل لم يفهم بعد معنى الاتفاق . وإنى أرجو القراء أن يلاحظوا فى هذا المثل وفى مائة ألف من مثله كيف تملأ رءوس الأطفال بألفاظ لا معنى لها عندهم ثم يقال بعد ذلك إننا أحسنا تعليمهم خير إحسان .

« يجب أن نرجع إذن إلى أصل الملك لنرى كيف ظهرت فكرته الأولى . فالطفل يكون لنفسه وهو يعيش فى الريف فكرة عن أعمال المزارع مما لا يحتاج إلا إلى النظر والوقت ، وله حظ منهما جميعاً . ومن طبائع الناس فى كل الأعمار وفى سنه هو بنوع خاص أن يتزعوا إلى الاختراع والتقليد والإنتاج والإبانة عن مظاهر القوة والنشاط . فما يكاد طفلنا يرى حرث الحديقة وبذرها وظهورها ونمو نباتها

حتى يصبو إلى القيام بمثل هذه الأعمال .

« وما كنت وفاقاً للمبادئ السابق بيانها لا عرض لبغيته ، بل على العكس من ذلك أحببتها وأشاركه فى ذوقه وأعمل معه لا لمسرته ولكن لمسرة نفسى ، وذلك ما يجب على الأقل أن يعتقده هو . ومن ثم أصبح صبيه فى عمله . فأحرث له الأرض فى انتظار أن تقوى أذرعه ويضع هو يده عليها بأن يغرس فيها حبات الفول . وليس من شك فى أن هذا الملك أقدس وأدعى للاحترام من تملك نونيس بلبا لأمريكا الوسطى باسم ملك الأسبان حينما أقام علمه على شواطئ البحر الجنوبى .

« ثم نجىء كل يوم نروى الفول ونراه ينمو ونحن أشد ما نكون ابتهاجاً ، وأزيد أنا ذلك الابتهاج بقولى له ذلك ملكك . فإذا شرحت له معنى الملك جعلته يشعر بأنه ما نتج إلا بإنفاقه وقته وعمله وجهده ومجموع نفسه وإن فى تلك الأرض شيئا من وجوده يستطيع أن يطالب به كل من سواه كما يستطيع أن ينزع يده من يد أى شخص يريد أن يمسك بها قهراً عنه .

« ولقد جاء يوماً إلى عمله ومعه جردل الماء . لكن المنظر كان أليماً . فقد اقتلعت كل شجيرات الفول وقلبت الأرض ظهراً لبطن وأصبح المكان ولا يمكن تمييزه . فبهت أميل وصاح : ماذا حل بكدى وعملى ونتاج عنايتى وعرق جبينى ؟ من ذا الذى غصب ملكى وأخذ فولى . وتحرك هذا القلب الشاب أن أسالت فيه أول مشاعر الظلم مرارتها الأليمة ، فهمل دمعه وملأ الجو توجعه وصياحه فشاركته فى ألمه وغضبه وبحثت واستقصيت حتى علمت أن البستانى هو الذى أتى الفعلة وأتيت به .

« لكنا دخلنا فى موضوع جديد . فإن البستانى لما علم بالشكوى كان أكثر منا شكاية وأرفع منا صوتاً وقال : أنتم إذن يا سادتى الذين أفسدتم علىّ عملى . لقد غرست فى هذا المكان بطيخاً ملطيًّا استودعت بذوره واعتبرتها كنزاً ثميناً وانتظرت أن أقدم لكم منه عند نضجه ما يسركم وهأنتم أولاء أتلفتم بطيخى بعد ما بددتموه بغرسكم فولكم المنحوس ولم يبق إلى الاستعاضة عن البطيخ سبيل . ألا لقد ألحقتم بى ضرراً بالغاً وحرمتم أنفسكم من التلذذ بأكل البطيخ .

جان جاك

« معذرة أيها المسكين روبير . فقد أودعت هنا كدك وعملك ثم ارتكبنا

نحن خطيئة إفساد عملك عليك . على أنا سنجلب إليك بذرًا ملطيًّا آخر ثم لن نعمل فى الأرض قبل أن نعلم ما إذا لم يكن أحد قد عمل فيها من قبل .

روبير

« هونوا عليكم أيها السادة فلم يبق بعد أرض خالية . وإنى إنما أعمل الآن فى الأرض التى استصلحها أبى وسواى يعمل ما أعمل . وكل هذه الأراضى التى ترون قد وضعت عليها الأيدى من زمن بعيد .

أميل

« خبرنى يا مسيو روبير . كثيراً ما تتلف إذن بذور البطيخ .

روبير

« عفواً أيها الصغير . فليس يغلب عندنا حضور سادة صغار طائشين مثلك ، ولا يمس أحد حديقة جاره بل كل يحترم عمل غيره حتى يكون آمناً على عمل نفسه .

أميل

« أما أنا فلا حديقة لى .

روبير

« ليس ذلك من شأنى . وإذا أنت أتلفت حديقتى فلن أتركك بعد تتنزه فيها : فإنى كما ترى لا أريد أن يضيع عملى هباء :

جان جاك

« ألا نستطيع أن نعرض على الطيب روبير اتفاقاً . فليعط لصديقى الصغير ولى جنباً من الحديقة نزرعه على أن يكون له نصف الثمرة .

روبير

« إنى أعطيه لكم بلا شرط . ولكن اذكروا أنى أحرث فولكم إذا أنتم تعرضتم لبطيخى » .

فهذه الوسيلة التى يلجأ إليها روسو لإدخال فكرة الملك إلى نفس تلميذه أبعد ما يكون عن تلك التربية السلبية التى عرفها . فإذا عرفت أنها وسيلة تكررت

فى كتاب التربية وأن روسو كثيراً ما رتب الأشخاص والأشياء والحوادث ليدخل إلى نفس تلميذه فكرة معينة تبين لك أنه شعر تمام الشعور باستحالة مرور الطفل بسنى الحياة الأولى من غير أن تترك فى نفسه أثراً . فأراد أن يكيف هذا الأثر على ما يريد .

وقد أخذ الكتاب ذلك على روسو : وأخذوا عليه أنه تعارض مع نفسه فترك التربية السلبية جانباً ولجأ إلى وسيلة لا يضمن أحد حسن أثرها كما لا يضمن أحد إمكان تطبيقها مهما جاهد ليتبع تعاليم روسو . وهى فضلاً عن هذا سهل أن يكشفها الطفل . وفى ذلك من الخطر ما فيه .

قال فيلمن فى عرض كلامه عن كتاب التربية : « هنا يظهر وجه الخطأ الأكبر فى طريقة المؤلف . ومرجع هذا الخطأ وجود الصناعة فى تلك التربية الطبيعية وتوزيع الأدوار ووضع الأشخاص فى الأمكنة اللائقة بهم . وإذا كان روسو لا يسمح لتلميذه بمطالعة الكتب لأنها كاذبة فما باله يرتب حوله كل هذه المناظر وهى فى صناعتها أكثر من الكتب كذباً . أفلا يعلم أن للأطفال سليقة حادة يكشفون بها عما يصنع لهم من صغائر الحيل ويدركون بها مبلغ الجد معهم . فإذا كشفوا هذه الحيل فقل على التربية السلام . وروسو لا يفطن لهذا الخطر فى طريقته » .

وما نشك فى وجاهة هذا النقد فلن تكون تربية رجل الطبيعة على أساس من الصناعة والتزييف . ثم إنك لن تستطيع أن تجعل الطفل فى وسط الصناعة والتحايل أبداً وتضمن تأثر الطفل بهما من غير أن يصل إلى كشفهما .

على أن لروسو بعض العذر عن خطئه . فقد كان مشتغلاً مدة كتابة أميل بالتفكير فى إقامة قاعدة الخلق على أساس التلاؤم مع الأشياء المحيطة . لكنه وقد كان يرى أبعاد ما خلفته المدنية وأوجده الترف من صناعة لم يكن فى حل أن يحيط الطفل بمظاهر هذه الصناعة كما أنه - وقد كان يسعى إلى تكوين رجل الطبيعة وهو فى غرضه يتعارض مع رجل ذلك العصر - كان من الخطأ أن يستعين بهذا الوسط الذى يطعن عليه وكان واجباً عليه أن يكتفى بالمحيطات الطبيعية الصرفة لتكوين غلامه .

والعجب أن يقرر روسو هذه النظرية ثم يبتعد فى التطبيق عنها . والحق أنه كما قال فيلمن ينقض الطرائق المعروفة بأحسن مما يثبت به صلاحية طريقته

فتراه يقول : « ليكن الطفل تحت حكم الأشياء دون سواها . فلا تأمره بشيء ولا تعلمه أكثر من أنه ضعيف وإنك قوى من غير أن تقص عليه أى درس كلامى . ولا توقع عليه جزاء فهو لا يفهم الجزاء ما دام حسه الخلقى لم يتكون بعد . ولن يصح أن يقع الجزاء بالطفل على أنه جزاء وإنما يجب أن يحل به كأنه نتيجة طبيعية لعمله » ثم يقول « إنما القمين أن تتم إرادته هو من لا يحتاج لتمامها أن يضيف أذرع غيره إلى أذرعه . . والرجل الصادق الحرية لا يريد إلا ما يقدر عليه . ذلك مبدئى الأساسى وأريد تطبيقه على الطفولة » .

أفيكون هذا التطبيق بمثل ما تقدم من الحيلة ؟ إذن فأين البساطة الطبيعية وأين حب الحقيقة وأين الواقع الصحيح .

لكن روسو أحرص على مبدأ التربية السلبية عند تطبيقه فى الميدان الأخلاق . فهو لا يريد أن يلقى على الطفل شيئاً باسم الواجب ولا أن يعلمه شيئاً باسم الحق ولا أن يتدخل معه فى استنتاجه فضرر كل تدخل أكثر من نفعه ، لكنه يرى واجباً أن يطيع الطفل إرادة أبيه أو مربيه وأن يخضع لها خضوعه لأى قوة من قوى الطبيعة القاهرة . وإلا : « فمتى استطاع الإنسان إتيان ما لا يسوغ له عمله دخل إليه حب إخفاء ذلك العمل . ومتى أمكن لصالح أن يصل منا إلى وعد وكلمة أمكن لصالح أكبر منه أن يدفعنا لنقض كلمتنا وعدم البر بوعدنا ، ومن ثم تدخل المفاسد إلى النفس . ولو أننا أبعدناها عن مظنة السوء لبقيت فى طهارتها ونقائها . ولا يكون ذلك إلا بتركها حرة تعالج الحياة وتحتمل ثمرات علاجها من خير وشر لنعلم أن الضرورة الطبيعية هى وحدها التى تقيد حرية الفرد وأنها لا تقيد حريته فى سبيل الخير والفضيلة والحق » .

ذلك متى لا مرية يترك للطفل من الحرية ما يسمح له بتربية نفسه حسب الوسط المحيط به . وأن روسو قد رأى لذلك وجوب ترتيب هذا الوسط بطريقة تضمن حسن النتيجة فى تربية ناعم الظفر . ولكن الترك المطلق كما قدمنا محال ، وهو إن أمكن فى السنين الأولى – إلى الثالثة أو إلى الرابعة من العمر – فهو بعد ذلك غير ممكن . لذلك وجب أن يتقدم المعلم إلى الطفل شيئاً فشيئاً لا بتعليمه الأشياء ولكن بإلفاته لها وإظهار الدهشة لعدم معرفته إياها بنفسه . على أن هذا الإلفات يجب أن يكون للأشياء المحيطة بالطفل لا بالأشياء التى لا يقدرها إلا توهماً . فلا تقل له

إن الأرض مستديرة ولا إن قطرها يبلغ طوله كذا وكذا من الكيلومترات ولا إن المسافة بين الأرض والشمس مداها كذا كيلو متر مما يشتت ذهنه ويغشى على بصيرته . بل جاهد لتجعله دائم الانتباه إلى كل ما يمسه مباشرة . وإنك إذاً لواجده قديراً على التصور والتذكر وعلى التعقل أيضاً . وهذا هو نظام الطبيعة » .

والأشياء التى تمس تلميذ روسو هى المناظر الطبيعية والمزارع والقرى المنشأة بينها . وفى هذه المحيطات موضع لعلم واسع يلاحظه التلميذ بنفسه . فاختلاف سعة المزارع والمنازل والأماكن يمكن الطفل من تفهم المقاييس والأحجام ، ومختلف المساحات وما إليها فما تلهمه مبادئ الهندسة . والقرى المختلفة المشتتة التى يغشاها فى أثناء نزهه ورياضاته وما بينها من بحيرات وغدران وجبال تفتح عينه للجغرافيا المحلية . وأخلاق الناس وعاداتهم وأقاصيصهم تدله على تاريخهم . وهو متى استطاع أن يفهم ذلك كله من الأشياء المحيطة به مباشرة تاق بطبعه إلى فهم أشباهها ونظائرها فسهلت دلالته وهان إرشاده .

* * *

فإذا سار الطفل فى سبيل التطور على هذا النحو حتى بلغ الثانية عشرة من عمره فانفتق ذهنه واتسع عرفانه أصبح قصره فى دائرة التربية السلبية غير ممكن ووجب البدء فى تعليمه . وذلك لأنه فى هذه السن دونه فى كل أدوار العمر يملك من القوة ما يزيد على رغائبه وشهواته . فبينا يعجز الطفل ويستصرخ لضعف جهده ، وبينا ينوء الرجل بحمل مطالبه ورغائبه ومطالب من يعول ورغائبهم ، إذا الفتى الذى قارب استكمال قوته البدنية وفتح عين بصيرته للوجود لا يزال قليل الرغائب لأن شهوته الجنسية لما ينفجر ينبوعها ولأن اطراد نموه يقاوم كل ما يستوجب الضعف ، ولأن ما أفاده من العلم بالمحيطات به بلغ حداً صار معه فى حاجة لتبويبه وترتيبه وتعميمه إلى ما يشابهه مما لا يقع تحت حسه . وهو لا يقدر على القيام بذلك بنفسه . وإلا لكان واجباً أن يبدأ كل فرد من أول الطريق الذى قطعته الإنسانية . وهو من غير شك أعجز من أن يلم وحده بمجموع ما كدسه الماضى من معلومات توضحت وتفصلت بالزمان . فإذا وقف فى منتصف الطريق عجز عن ملابسة الجمعية ولم يفده عجزه شيئاً . ومن الواضح أن تربية هذه نتيجتها هى تربية خائبة .

ولعل القارئ يذكر ما وجه لروسو من قارص النقد حين نشر خطابه عن

العلوم والفنون داعياً للرجعة إلى الطبيعة . فقد طعن عليه بورد وستانسلاس وغيرهما يومئذ بأنه يقف فى طريق التقدم ويدعو إلى الخراب . واضطر هو فعدل عن فكرته المتطرفة إلى وجوب استبقاء المكاتب والمتاحف من غير أن تكون سبباً للترف ولما يجره من الفساد . وما كان روسو ليقع من جديد فى خطئه القديم . فجعل يوضح لأهل عصره السبيل لمحو الفساد مع الاستمرار فى طريق التقدم العزيز على العلماء والكتاب جميعاً .

ووسيلة ذلك فى تربية تلميذك الذى تعدى الثانية عشرة من عمره أن تلهمه الحقائق المحسوسة من غير أن تعلمه إياها . وذلك « بأن تنبه يقظته إلى مظاهر الطبيعة حتى تثير عنده الشغف بها ، على أنك إذا شئت أن يبقى شغفه فلا تقدم له ما يكفيه ويقنعه بل قرب منه المسائل ودع حلها له . فلا يجوز أن يعلم شيئاً لأنك قلته له وإنما يجب أن يعلمه لأنه فهمه من تلقاء نفسه . وإذن فهو لا يتعلم العلم ولكنه يبدعه » . . على أن من الواجب إرشاده بعض الشىء ، وبعض الشىء فقط ، وبمقدار لا يشعر هو به . فإن أخطأ فدعه يخطئ ولا تسارع إلى إصلاح خطئه ، بل انتظر مطمئنًّا حتى يتاح له أن يصحح ما أخطأ فيه أو فرتب له فرصة غير محسوسة تجعله يحس بخطئه . ولو أنه لم يخطئ أبدًا لما أتقن تعلماً » وهنا يرتب روسو من صور الطبيعة ومظاهرها ومن الصور المسرحية التى مر بك مثلها فى قصة البستانى ما يبين به طريقة الإلهام وإثارة الشغف واستبقائه .

إلى هذه السن لم يقرأ أميل كتاباً إلا كتاب الطبيعة « الذى لا يكذب أبدًا » ، وهو فى هذا يختلف عن روسو الذى كان ولا يزال فى السادسة من عمره يقضى الليل كله يقرأ هو وأبوه روايات كانت أمه قد خلفتها قبل وفاتها . إلا أن روسو كان شديد لرغبة عن الكتب ، لأنه كان يعتقدها مثالاً للبيئة الاجتماعية كافياً ليفسد على الأستاذ كل تعليمه وبخاصة إذا قرأها الطفل ولما تتكون عنده ملكة الحكم ولما يفد من المعارف ما يسمح له بتقدير ما فيها من صحيح وباطل . لكنه إذ بلغ الثانية أو الثالثة عشرة من عمره كان فى سن تسمح له بالتدبر بعض الشىء ولذا وجب التسامح معه فى قراءة بعض الكتب على شريطة أن تكون فى متناول علمه وأن يستطيع الحكم عليها حكماً صحيحاً .

فأما الكتب التى تتعدى مقدرته فى الحكم فضارة لأنها تفسد نظام تربيته

وتخضعه لأفكار لم يحصلها هو بنفسه وتجعله لذلك ألعوبة فى يد سواه وتدفع به إلى التقليد وإلى مجاراة الوسط ، من غير تفكير فى تقدير ما يجارى غيره فيه اعتماداً على أن هذا الغير أكثر منه مقدرة وأوفى علماً . والطفل إذا اتجه إلى هذه الناحية فقد ذاتيته وضاع كل مجهود أنفق فى تكوينه وتربيته وصار مغرساً صالحاً لكل مفاسد الاجتماع .

وخير الكتب التى يقدر عليها الأطفال فى هذه السن حكايات لافونتين . وليس من شك فى أن هذه الأقاصيص التى تنسب إلى إيزوب اليونانى والتى نقلها لافونتين إلى الفرنسية هى ببساطتها وبسوقها على لسان الحيوانات وبالأفكار والحكم التى تحتويها خير ما يصلح لرياضة عقل الطفل لجاذبيتها ولطرافتها ولجمالها . وطفل روسو ومن كان على شاكلته يستطيعون لا شك حسن تقديرها والحكم عليها .

لكن أقاصيص لافونتين لا تكفى وحدها غذاء لنفس الطفل المحتاجة إلى الغذاء العقلى . ولما كان حتماً أن يكون الطفل لنفسه فكرة عن العالم وعن الإنسانية بعد ما كون فكرة عن ركن العالم المحيط به وعن أصول وفروع أصحابه ومعارفه فقد أباح له روسو مطالعة كتب التاريخ مفضلا منها ما كان مقصوراً على تراجم الأفراد . وحكمة ذلك أن تواريخ الأمم لا تعنى من فترات حياة الأمم إلا بأوقات الحروب والثورات والمذابح وما إليها من ظاهرات تدهور الإنسانية . فإن الشعوب السعيدة لا تاريخ لها . والرجوع إلى هذه التواريخ المولعة بالبحث عن المجد والإشادة باسم الذين وصلوا إلى ذروته مفسد للروح لما يدفعه إليها من حب الدسيسة والخديعة والكذب والنفاق .

وإنا لنؤمن بهذه الملاحظة ونعتقد أن العصور التاريخية التى يعلو فيها نجم السياسيين هى أتعس عصور الإنسانية وأحطها . ولو أنك رجعت إلى أبدع ساعة فى تاريخ فرنسا ساعة الثورة الفرنسية ووقفت عندها وقفة الحكيم وحللت ما كان فيها إذن لما رأيت إلا كلمات جوفاء وإلا مظالم مكدسة بعضها فوق بعض وإلا السياسيين ذوى المطامع الذاتية يدوسون باسم أرقى المبادئ وأسماها رقاب البشر يظلمون باسم العدل ويقتلون باسم السلام العام وينهبون باسم ثروة الدولة ويرتكبون كل فاحشة ومنكر باسم الفضيلة الطاهرة ويهيئون الأمة الثائرة تطلب الحرية لقبول ظلم نابليون وطغيانه .

بل ما لنا نرجع للثورة وهذه حرب العالم الكبرى ولما يكد ينتهى العالم منها . أرأيت ما بلغته الأمم خلالها من جلال وما باهت به بعدها من فخار ومجد . أسمعت كلمة إمبراطور الألمان أول الحرب (ويل للمغلوب) وهى كلمة لا نظير لها إلا فى نذر الآلهة . أسمعت خطب لويد جورج وكلمنسو وما تستفز به حمية الشعوب وتستدر به عبرات الإنسانية . وهل تذكر خطب ما بعد الهدنة مترددة بين الوعد والوعيد وصوت البشير وصيحة النذير . إن كنت تذكر كل هذا فاجلس ساعة إلى نفسك واحتلب عصارته جميعاً بعد أن تمرره بمصفاة عقلك ثم قل لى هل ترى فيه من خير يعدل ما فى سطر من كتب روسو أو قصيدة من شكسبير أو من كوميديا دانت الإلهية أو من تواليف جيت وشلر . ولا غرابة فى ذلك . فالإنسانية إنما تنتج طيب آثارها وهى فى حال من طمأنينة البال وسكينة النفس وفى شىء من الرغد ونعمة العيش . فإذا هى استطير عقلها طاش صوابها وتحكمت فيها شهواتها الحيوانية فأصبحت الخطب زئيراً وصهيلا والتفكيرات طفرات واندفاعات والعواطف سلائق وحشية والرحمات رياء ونفاقاً . وما كان لأحد أن يطالب الإنسانية بغير هذا . فإن للوسط على النتيجة أكبر الأثر . فإذا تلبد الجو بدخان البارود فاحتجبت الشمس واختفى القمر وتسمم النسيم وقلبت الأرض عاليها سافلها وغطى الجدب أكثر بقاعها ربض الإنسان وسط ذلك كله وجلا مضطرباً متحفزاً للوثبة كله عيون ترى مواضع الخطر وآذان تسمع هزات النسيم وكان على هذه الحال ولا فرق بينه وبين النمر أو الثعلب أحيط به وسط أدغاله وأحراشه .

كتب التاريخ التى تقص خبر هذه الفترات من حياة الإنسانية ليست إذن من طيبات الكتب التى تقدم للناشئة حين تربيتها . لكن الناشئة ليست فى غنى عن كتب التاريخ . لذلك فضل روسو أن تقدم إليهم كتب التراجم . فإن المؤرخ يعنى بتتبع من يترجمه فى كل فترة حتى فى الفترات التى يود المترجم الخفية فيها والاستتار . وهو لا يترك له فرصة ولا صورة إلا عرضها أمام عين الناظر الناقد . وهو أشد عناية بتعريف الناس إياه حينما يظن هو أنه اختفى عن كل عين .

لعل القارئ يذكر ولع روسو بكتاب بلوتارك عن حياة العظماء . وهو هذا الولع الذى أدى به ليمدح فكرة قراءة التراجم أكبر المدح ويشايع الكاتب الفرنسى الكبير مونتنى فى محبته إياه وفى التشجيع على قراءته .

على أن كتب التاريخ العام وكتب التراجم لا تقتصر على ذكر الوقائع ووصف حالات النفس . بل كثير ما يوجهها حكم المؤلف على الحوادث وجهة خاصة . وما كان لمؤرخ مهما بلغ من حياده ومهما نظر إلى الحوادث بعين مطمئنة لا تعرف الفزع ولا النشوة أن يمحو ذاتيته من كتابته : فإن للوقائع التى يسردها وللرجال الذين لعبوا الأدوار المهمة فيها ولظروف الاجتماع التى أحاطت بها ولتصاريف الأقدار التى وجهتها منطقاً خاصاً . ولم يبلغ العلم الاجتماعى بعد من الدقة مبلغاً يجعلنا نؤمن بالقوانين التى تصرف الحوادث التاريخية والاجتماعية إيماننا بقانون الجاذبية . فكل مؤرخ وكل مترجم له رأيه فى منطق الحوادث وله حكمه على كل رجل من رجال التاريخ . لذلك كان الناشئ فى تعرضه لهذه الكتب عرضة لأن يتأثر بحكم غيره . وهو وان بلغ سناً تسمح له بحسن التقدير فإنه لا يزال فى درجة من معرفة العالم أدنى من درجة هؤلاء المؤرخين والمترجمين . وتأثره برأيهم هو ما يخشاه روسو وإن كان لا يجد من الالتجاء إليهم مفراً .

يلتجئ الطفل إلى كتب التاريخ والتراجم ليعرف سيرة الإنسانية والسبل التى سلكها الناس فيها من قبل وكيف قدروا شأنها وأثروا فيها وتأثروا بحوادثها . . ذلك كل شأنه من قراءته ليس يعنى بتمحيص الحوادث لبضع يوماً مؤلفاً فى التاريخ ولا يفحص صور الأمم لينشئ نظريات فى الاجتماع ، لأنه فى الحالين يكون معيناً على انتشار العلوم والفنون وانتشارهما فساد وشر عند روسو . وليس يعنى من قراءته بما قد تجره من الفائدة المادية لأنه على ما رأى القارئ بادئ الأمر شاب غنى من أسرة عريقة فى الأرستقراطية غير محتاج ليجعل من دراسته صناعة ترد عليه من وسائل العيش ما ترده الفأس على الفلاح والكير على الحداد والمنشار على النجار . هذه الدراسة أو بالأحرى هذا الاطلاع على بعض الكتب الخاصة وتفهمها والحكم عليها إنما يراد به المزيد من حسن تكوينه ليصبح أكثر مقدرة على ما أعدته له أرستقراطيته من التربع على عرش الحياة بما يجب له من العظمة المحسنة ومن التحكم المحبوب .

لكن الغنى عرض والأرستقراطية مظهر والتحكم المحبوب ليس مضمون البقاء . وأميل لم يصل من قراءاته ليفيد عرض الحياة . لذلك رأى روسو أن يعلمه صنعة يدوية حتى إذا قعد بن لزمن كانت له معيناً على الزمن . ثم إن ما وقر

فى نفس أميل من أن السعى أساس التملك وأن البطالة ليس لها جنى إلا العلل والأمراض وأن رياضة البدن أمر جم الفائدة كل ذلك يجعله يرى فى الصناعة اليدوية ما يسلى به وقته وما يزيد به فى رياضاته وما يشعره المساواة مع الفقراء فى كدهم كما تشعره تربيته الراقية المساواة مع الأرستقراطيين فى سرائهم وفى حكمهم غيرهم .

* * *

إلى هنا انتهى روسو من تربية تلميذه الأول فانتهت الأجزاء الثلاثة من كتابه الضخم . وهنا وقف تلميذه عند حدود ما بين الطفولة والرجولة حين يبدأ الفرق الصحيح بين جنسى الرجل والمرأة ، فيخرج الأول من طفولته وتتغير فيه كل مظاهرها من نعومة فى الصوت وخلو فى الفؤاد وإبهام فى النظرة وخضوع واستسلام ويبقى الثانى مستمرًّا فى طفولته بكل مظاهرها إلى ختام حياته .

هذه اللحظة هى أدق لحظات حياة الرجل . فنحن (نولد مرتين أولاهما لنوجد والأخرى لنعيش ، أولاهما للنوع والأخرى للجنس) فإذا تفتحت فى الشاب ينابيع حياة الجنس كان هذا مولده الثانى . وليس هذا المولد أقل خطورة من الأول . فإنك ترى الشاب فى إبان هذا التطور وقد تغير طبعه وكثرت اندفاعاته ولج به اضطراب النفس وصم عن سماع كل صوت يناديه للسكينة وأصبح وكأنه أسد فى نفرته لا يعرف مرشداً ولا يقبل لغيره عليه حكماً . فلا عجب أن يكون واجب المربى فى هذا الدور من أدوار الحياة مضاعفاً وأن يكون كل ما قام به من قبل فى سبيل التربية قليلا إلى جانب ما تقتضيه هذه اللحظة الحاسمة .

عود روسو تلميذه الطاعة فى كل أدوار حياته ، وحبب إليه رياضة البدن ورياضة النفس ، وعلمه حرفة يدوية يقتل بها الوقت ويستعين بها إذا قضت الحاجة ، وقدم إليه طيب الكتب القليلة ليقرأها ويحكم عليها . ولم يترك لحظة من وقته إلا شغلها بما يريد ، على ألا يحس التلميذ بهذا التحكم ، بل على أن يعتقد أنه حر مطلق الحرية يصرف وقته كما يشاء ويعمل ما يريد . فكان طبيعياً إذن ألا يفكر التلميذ فى شىء من صلات الجنسين قبل هذا المولد الثانى . وما دمنا قد عودناه الحكم على الأشياء وإمعان النظر فيها فإن هذه الساعة الخطيرة ستمر بهذا التلميذ من غير كبير خطر . لأن تحكم الأميال الجنسية فى الشبان

ودفعها بهم فى سيئ السبل إنما سببه كثرة تفكيرهم فيها . أما إن هم وجدوا عنها منصرفاً وشغفوا بأعمال وتفكيرات أخرى فإن ساعات العماية لا تمر بهم أبداً . . لأن اتجاهات الذهن أكبر من كل شيء أثراً على حركات الجسم واندفاعاته . وما دامت هذه الاتجاهات عند تلميذ روسو بعيدة عن صلة ما بين الرجل والمرأة فإن خطر ساعة بدء الشباب يكون غير مخشى العاقبة .

وإنا لنشارك روسو فى ملاحظته هذه عن إيمان وعلم ونقطع وإياه بأن مفاسد الشباب فى المدن إنما سببها هذا التبرج النسائى وهذه الصور المخجلة التى تعرض لا على مسارح التمثيل فحسب ولكن فى السبل والطرقات وفى حوانيت الباعة وفى الزيارات العائلية وفى الأحاديث العامة والخاصة . دعنا إلى جانب هذا من دور الدعارة ومباآت اللهو ومن تلك الأماكن العامة يمرح فيها أفراد من كل جنس لاهم لهم إلا إثارة كوامن الشهوات . فكيف ترجو مع ذلك أن تمر بالشاب ساعة جنون الشباب فلا يندفع وراء الرغائب الجنسية الثائرة فى نفسه . بل كيف ترجو ألا يفكر الأطفال قبل العاشرة بل الثامنة من عمرهم فى صلات الجنسين ، وكيف تراهم يقمعون فى نفوسهم طلعة الطفولة التى تدعوهم للسؤال عن كل ما تقع عليه عيونهم . فإذا هم فهموا هذه المعانى على النحو المشوق الذى تقدم به فى المدن تواردت صورها إلى أذهانهم فهاجت نفوسهم فعجلت الساعة الخطيرة ولما يكتمل لهم من توازن قوى الجسم والعقل ما يضمن سلامتهم من التورط فى الزلة والارتكاس فى حمأة الرغبة الجنسية والتأثر بكل ما يجيء ذلك به من فساد فى الطبع وضعف فى النفس وانحطاط فى جميع القوى .

أما فى الأرياف البريئة من كل هذه المفاسد فسن بلوغ الفتيان والفتيات متأخرة عما هى عليه فى المدن (وإنه ليدهشك أن ترى فى قرى سويسرا الجبلية شباناً فى قوة الرجال ولا يزال صوتهم حاداً وذقنهم ملساء ، وفتيات كاملات التكوين لا تؤاتيهن عادات النساء . وهذا الفرق الواضح بين هؤلاء وأهل المدن إنما سببه أنهم فى بساطة أخلاقهم يحتفظون بخيالهم هادئاً مطمئناً فيتأخر اختمار دمهم وتظل طباعهم أقل حدة) وما يصدق على قرى سويسرا يصدق على كل مكان تسود فيه البساطة وطمأنينة الخيال .

فإذا ظل التلميذ مشتغلا برياضاته ولعبه وقراءاته وحرفته عن التساؤل عن صلات

الجنسين وما يرتبط بها فواجب ألا ينبه إلى شيء منها حتى يبقى فى سكينته وحتى تمر به العاصفة وهو قوى عليها يلقاها بلا خوف ولا وجل .

لكنك لن تضمن ذلك . فللأطفال مسائل يلقونها فى هذا الباب عن براءة وطهارة قلب . فكيف نجيبهم عنها . أترانا نكذب أم نلزمهم السكوت أم نصارحهم بحقيقة الأمر واضحة جلية .

أما الكذب فبغيض إلى نفس روسو وهو لا يقره بحال . وأما إلزام السكوت فذلك ما يميل إليه . وما دام الطفل قد اعتاد الخضوع لهذا الأمر فى مواضع أخرى من تربيته فلن يراه فى هذا الموضع غريباً ولن يثير عنده أى دهشة أو طلعة . على أن الأقل من الأمهات من تكتفى بإلزام طفلها السكوت . بل هن على الأغلب يفاجئهم بعبارات التشويق والترغيب كأن يقلن لهم : ستعلمون ذلك فيما بعد . أو ذلك سر المتزوجين . فيبقى الطفل تتقلب طلعته على أشواك الحيرة يود أن يعرف اليوم ما سوف يعلمه من بعد ويريد أن يقف على سر المتزوجين . فإذا لم يجد من أمه أو مربيه من يدله عليه لجأ إلى الأطفال أمثاله . وهو لن يعدم أن يجد من بينهم طائفة فاسدة الخلق تزين له من أمر هذه الأسرار التى يأبى الكبار أن يبوحوا بها ما يجعل الطفل يدمن الفكرة فيما يقوله أمثاله مزينا إياه بصور خاصة من خياله معتبراً فيه طلسماً ضـــن أبواه بفتح كنوزه أمامه . ولو أنهما كلماه فى الأمر بصراحة وببساطة كما يكلمانه فى كل ما سواه فقالت له أمه حينما سألها كيف تصنع الأطفال أن النساء يلدنهم متجشمات فى ذلك من الآلام ما يذهب أحياناً بحياتهن ، وقالت له ذلك على نحو ما تقول له أى شيء آخر إذن لرأيت طلعته وقد اطمأنت ثم لرأيته وقد انصرف عن التفكير فى أمر هذا مبلغه من السخف أو إن شئت فقل من القذارة والنكر .

لكن العرف يأبى ذلك ، والسبب عند فاجيه راجع إلى تفسير الأشياء الطبيعية بشيء من الحدس الدينى (فإن الطفل لا يذكر شيئاً مما أصابه ولا يذكر ما كان حتى الرابعة من عمره . لذلك خيل لآبائنا أن الآلهة أرادوا أن يبقى الإنسان زمناً طويلا جاهلا كيف وجد فى هذا العالم وألقوا على مسألة الميلاد حجاباً مقدساً ظنوا رفعه أمراً غير جائز) لكن الحجاب المقدس الذى يأبى الآباء رفعه يرتفع من أمام عين الطفل بلا حاجة لتداخل أبويه . فإن زملاء المدرسة وخلان

الطرقات وحثالة السفلة أجرأ من الآباء وأسرع إلى التجديف فى حق هذا السر القدسى بطريقة دنيئة منكرة سيئة الأثر والفعل فى نفس الطفل البرىء ولو أن الآباء أزاحوا الحجاب على النحو الذى ذكره روسو من البساطة وعدم العناية به أكثر من أى مما سواه لانصرف الطفل عن العناية بالبحث فيه أو بسماع أقوال زملائه عنه وكان شأنه شأن من صرفته أعماله ورياضاته وما إلى ذلك من المشاغل عن المسألة فى هذا الأمر ، فبلغ الحلم متوازن القوى والرغائب غير معنى بالمسألة الجنسية أكثر من عنايته بسواها مستعدًّا للبقاء فى طهر العفاف حتى زواجه . وما أكثر ما تكسب الفضيلة بذلك (فإن الطفل الحسن المولد الذى يحتفظ إلى العشرين بطهارته هو فى هذه السن أكرم الرجال وأحسنهم وأرقهم) ذلك ما يقوله روسو عن علم وتجربة لا يخشى معهما كذباً . وإنما يجهل سواه من فلاسفة العصر هذا الأمر لأنهم تربوا وشبوا فى أحضان الفساد المدرسى .

* * *

إلى ذلك الوقت ، إلى السادسة عشرة من سن أميل لم يلقن أميل شيئاً من قواعد الخلق ولا عنى أستاذه بتأديبه ، بل تركه للطبيعة يتأثر بمظاهرها ويفعل تلك المظاهر فيه ، وليس من شأن الطفل قبل هذه السن أن يفكر فى غير نفسه ولا أن يعنى بعلاقته بمن سواه ولا أن يقدر للعواطف المختلفة . وإنما تسير به فى مضطرب الوجود فطرة الاحتفاظ بالحياة فى أحسن الظروف الممكنة للحياة . وهذه الفطرة هى أقوى أسس الأثرة وهى التى تجعل الموجود لا يعنى من الوجود إلا بذاته ولو ترتب على عنايته بذاته فناء الوجود .

وما يشك قارئ فى أن هذا الترك إهمال معيب من جانب الأستاذ لتلميذه . فإنما الغرض من التربية تهذيب هذه الأثرة الأشعبية . فإذا ترك الطفل وشأنه نمت فيه أثرته فأصبح من المتعذر التغلب عليها كما أحاط بها من مستلزماتها الغرور والكبرياء والجشع وحب الظلم وما تدعو هذه الصفات إليه من الكذب وباطل الادعاء ومن النفاق وتمليق الأقوياء ومن القسوة والفتك بالضعفاء . ويومئذ يذهب كل مجهود لاستئصال هذه الصفات أو للتغلب عليها هباء . ويومئذ يكون القسم الأهم من التربية بل التربية كلها قد ذهبت ضياعاً .

هذا اعتراض قوى يوجه إلى روسو فى تركه فتاه بلا تأديب حتى هذه

السن المتقدمة . لكن لروسو عليه رداً ليس أقل منه قوة . فهو يقول إن تلميذى ليس كتلاميذكم (انظر إليه فى هذه السن تر أنه لم يشعر بشيء ولم يكذب فى شيء . فهو لم يقل لأحد قبل أن يعرف معنى الحب – إننى أحبك – هو لم يعود تكلف مظهر خاص حين الدخول فى غرفة أبيه أو أمه أو معلمه المريض وهو لم يعلم فن التظاهر بالحزن حين لا حزن عنده . وهو لم يتظاهر بالبكاء لموت أحد لأنه لم يعرف بعد ما هو الموت . وإنما تترجم سكينة طباعه عن سكينة قلبه . وهو لا يهتم لأحد لأنه لا يعنى بشيء إلا بنفسه شأن الأطفال جميعاً) وقد حفظ ذلك عليه طيب طبعه كما أتاح له أن عاش عيش الطبيعة فلم يدرج أول ما درج إلى أماكن اللهو وإلى المجتمعات البراقة الكاذبة البريق وإلى كل مصنوع متكلف . ولو أنه شب كما شب غيره واعتاد التكلم بما لا يعرف وبما لا يحس به لكان أساس تربيته فاسداً ولكنت بتربيتك له على هذا النحو إنما تكيف رجل الجمعية الفاسد الدعى على حساب ابن الطبيعة الصريح الصحيح . وهذا لعمرك هو الشر المستطير .

لما يقف أميل إذن بعد على شيء من قواعد الخلق فكيف السبيل لإدخالها إلى نفسه .

قد يجب علينا قبل عرض هذه المسألة على طريقة روسو أن نسأل عن رأيه هو فى قواعد الخلق ، وقد يجب علينا قبل معرفة رأى روسو أن نسأل عما هى قواعد الخلق لذاتها . وإنا لا ندعى فى هذا الموضع إمكان مناقشة المسألة الأخلاقية التى يستغرق كل وجه من وجوهها مطول التصنيف ولكنا نعرض منها لما نرى ضرورة التعرض له لفهم رأى روسو ونعرض له على طريق الإشارة البسيطة لا على طريقة البحث والتمحيص .

لو أنك فرضت وجوداً لحى بن يقظان أو لروبنصن كروزو لما استطعت أن تتصور لهما من قواعد الخلق إلا بمقدار ما يستطيعان معه ملاءمة الوسط الذى يعيش كل منهما فيه . فإذا كان أحدهما محاطاً بكواسر الوحش وبطقس متقلب كثير العدوان وبأرض قليلة الخصب لم يكن بد من تصور هذا الشخص قوياً نشطاً ذا ذكاء وحيلة وإبداع حتى يدفع بقوته وحيلته عاديات الحيوان عليه ، وحتى يصل بنشاطه وإبداعه إلى استغلال الأرض على قلة خصبها ، وحتى يستعين

بإبداعه وذكائه على اختراع ما يتقى به تقلب الطقس ، فإذا وصل إلى ذلك كله فاتقى العدوان وحصل المعاش كان ما يأتيه بعد ذلك من تفكير أو تصور أو عمل ولا حكم لقاعدة من قواعد الأخلاق عليه . وإذا كان الآخر مقيماً فى جوخصب غنى بخيراته معتدل الطقس قليل العوادى من حيوان وطير كان فى غنى عن القوة وعن الحيلة وعن الإبداع ، وكان غير ملوم فى أن يتمتع من جنته بكل ما يصوره له خياله من أنواع المتاع ثم لا يكون لشىء اسمه قواعد الخلق حكم عليه .

لكن الإنسان المنفرد لم يكن ولن يكون . فإذا وجد حى وكروزو معاً وكانا متساويين قوة وحيلة وذكاء اقتسم كل نعم الحياة مع صاحبه من غير عدوان عليه لأن عدوانهما الأول أثبت لهما أن ليس لأى منهما من وراء العدوان فائدة وأن العدوان ضار بهما جميعاً . كذلك تعاون كل مع صاحبه لدفع العوادى . . فإذا حل بأحدهما الضعف جاهد صاحبه ليفيد على حسابه . فإذا تفاوتا فى القوة إلى حد إذلال أحدهما للآخر لم يكن للذليل بد من أحد أمرين : إما الخضوع رجاء الحصول على ما يقيم أوده مع بعض المتاع الذى يفيض عن صاحبه . وإما الاحتماء فى الزهد واحتمال الحرمان من كل ما قد تجود به الحياة المحيطة من نعيم أو مسرة ، وهذا الاحتماء من الظلم فى كنف الحرمان هو عندنا أساس التقشف والزهادة التى أصبحت فيما بعد مذهباً أخلاقيًّا ذا قوام وشعب وقواعد .

ولا عجب أن يصبح الزهد مذهباً . فقد كان التفاوت وعدم المساواة فى عصور ما قبل التاريخ ، وكان الظلم ولا يزال قاعدة التعامل بين الأفراد والأمم . وإلى اليوم أخفقت كل المجهودات الكريمة التى أنفقت لمنعه أو لتخفيف وقعه . وكثيراً ما استفاد الظلم على حساب هذه المجهودات وخرج بفضلها ظافراً من كل الحروب التى أعلنها ومن الحروب القليلة التى أعلنت عليه .

غير أن التقشف لا يتفق مع طبيعة الحياة . وليس من متقشف إلا وصدف عن الحياة سواء طمع بعدها فى الخلود أو هو لوى عنها وجهه تقززاً منها واستهزاء بها أو خضوعاً لضرورتها المتحكمة ، والتخلى عن الحياة تناقض لا تطيقه النفوس فى معروف الحياة ، لذلك كان مذهب الرواق على بديع جماله خيالا شعريًّا . أما ما هو واقع تحت نظرنا فيدلنا على أن الحياة غاية الحياة وأن ما تفسر به صورها بعد ذلك إنما هو حدس لا دليل عليه . ولتحقيق هذا الواقع يجب أن

تكون قاعدة الخلق عندرجل الجماعة كقاعدة الخلق التى فرضناها لحى بن يقظان ، ملاءمة الوسط الذى يعيش الفرد فيه على طريقة تتفق مع فطرة احتفاظ الفرد بحياته ومعاونته على احتفاظ الجنس ببقائه وبتطوره وبملاءمته للوسط الذى يعيش فيه .

وهذه القاعدة أكثر تمشياً مع مذهب أبيقور على تعدد صوره ، وهى ما يريده روسو قاعدة لآدابه مع شيء من الطرافة خاص به ومميز له عمن سواه .

وقد يلاحظ هنا أن هذه القاعدة هى القاعدة العامة لكل أنواع الخلائق ، فلن يحتمل الحياة موجود لا يتلاءم مع ظروف الحياة المحيطة به . ألا ترى إلى السبع والنمر على قوتهما وجرأتهما كيف يهجران الأماكن التى لا تتفق طباعهما مع طبيعة العيش فيها . فما الفارق بين الإنسان وغيره إذن ؟

الفارق أن طبع الحيوان أصلب وأقسى من طبع الإنسان . الإنسان قدير على أن يتشكل بشكل الظرف الذى هو فيه . وهو قدير على ذلك عن إدراك وشعور . أما الحيوان فأقل مرونة وهو لذلك أسرع إلى الانقراض عند تغير الوسط . ومرونة الإنسان وشعوره بهذه المرونة هما أساس الخلق المكسوب القائم إلى جانب الطبع والسليقة عنده .

وقد كان من تطور حياة الإنسان أن تزايد التفاوت بين جماعاته وبين أفراد كل جماعة فاقتضى ذلك نضالا دائماً تمت الغلبة فيه للظلم أكثر الأحيان ، وباء المظلومون بخيبتهم يتعثرون فى أذيالها ويشعر كل منهم بقارص ألمها . فتكون عندهم تبادل العطف بسبب الألم المتبادل ، وعرف كل منهم أن أخاه البائس يستحق من الإشفاق ما يشعر هو فى نفسه بأنه مستحق له ، ثم حفزهم ألمهم لمعاودة الكرة وللثورة من جديد فى وجه الظلم ، فاحتاجوا للقيام بثورتهم إلى التعاون والتضامن فيما بينهم وإلى الصداقة فى القول والإخلاص فى التضحية ، لكنهم لم يظفروا من ثورتهم الجديدة إلا بما فازوا من نضالهم القديم ، فعادوا أدراجهم واجمين ، ففكر جماعة منهم فى القناعة بحظهم مكتفين بالنظر لمن دونهم وبالتألم لمن كانوا أكثر منهم مصاباً . أما الآخرون فنظروا إلى من غزوهم نظرة الحقد ثم فكروا فى إنزال غضبهم بأمثالهم الضعفاء الذين عجزوا بالأمس معهم عن مواجهة الأقوياء . وكذلك تجدد الظلم والعدوان وكذلك نشأت العواطف.

التى رأى القارئ ، فأقامها الناس قواعد لخلقهم فى النضال اليومى الذى لا يقل عـن ذلك النضال الآخر بشاعة وقسوة والذى لا يمتاز عنه إلا بأن أسنانه أدق وأحكم ، فوخزاتها أقوى وأقتل ولكن فى خفية وتحت ستار الابتسام .

ولولا التفاوت ولولا النضال لما كان شيء اسمه قواعد الخلق ولا الآداب ولا الفضيلة ، بل لعاش الناس عيش أهل الجنة على ما يصفهم الواصفون .

على أن ما سنه الناس قواعد للخلق قد أخذ صوراً وأشكالا عدة ، وكل إنسان ميال بطبيعة مزاجه وبظروف حياته وبتكوينه النفسى وبحكم البيئة إلى صورة من هذه القواعد خاصة تختلف قليلا أو كثيراً عن الصورة التى يميل إليها سواه . وقد كان روسو ميالا إلى نوع من الفضيلة الزاهدة فى الترف مع نوع من الاعتذار عنه ونصيب من الرغبة فيه . نصيب يسمح له بالتخلص من ضرورات العيش مطمئناً إلى نفسه وإلى تفكيراته وتأملاته من غير أن يذل هو له وأن يستذل لذلك من سواه من الناس . ولعله عبر عن ذلك خير تعبير فى رواية الهلويز حين قال عن جولى : (وجولى نفس وجسم يتعادلان فى دقة الإحساس ، فعواطفها وأعضاؤها كلها الرقة . وهى قد خلقت لتذوق كل اللذائذ ولتعرفها . لذلك مر بها زمن طويل كانت تحب فيه الفضيلة حباً جماً على أنها أشهى الشهوات . وهى تنهل اليوم من هذا المتاع الأسمى ولا ترفض ما سواه من صور المتاع ما لم يتعارض معه . لكنها تسلك فى المتاع باللذائذ سبيل القصد التى يسلكها من يرفضون اللذة . وفن المتاع عندها هو فن الامتناع – على ألا يكون امتناعاً أليماً يجرح الطبيعة ولا يرى فيه خالقها إلا تحية سخيفة أحرى بالازدراء والتحقير . بل امتناعاً معتدلا موقوتاً يحفظ للعقل حكمه ويحتفظ بالسرور فى حدوده ، فينفى عنه التقزز منه والإسراف فيه ، وهى ترى أن حاجات الحس التى ليست من ضرورات الحياة يتغير طبعها إذا انقلبت عادة فينقضى العهد بها كلذة وتصبح حاجة لازمة وغلا يتقيد الإنسان به ومتاعاً يحرم نفسه منه . فسداد الرغائب ليس إذن هو وسيلة إقناعها ، بل وسيلة قتلها . لذلك تراها تجيب واحدة من عشرين من رغائبها فتجعل بذلك للرغبة المجابة قدراً وثمنا وتحفظ على نفسها قوتها ولا تغنى بالاستهلاك لذتها .

« ولها من الامتناع غاية أشرف هى حكم نفسها وتعويد شهواتها الطاعة ورغائبها الخضوع ، وتلك سبيل طريفة للسعادة ، فإن الإنسان لا يطمئن للمتاع إلا بما

يستطيع فقده من غير ألم ، وأعجب ما يظهر لى عجيباً فى اعتدال مزاجها أنها تأخذ فى قصدها بالأسباب التى تدفع بالشهوانيين إلى تطرفهم . وهى تقول إن الحياة قصيرة حقًّا ويجب لذلك أن نتمتع بها إلى غايتها وأن نتصرف فيها جميعاً بحذق كى نفيد منها أوفر حظ ممكن . ولو أن يوم تخمة أضاع علينا متاع عام لكان من أتعس صور الفلسفة أن ننقاد وراء رغائبنا ناسين أنا قد نصل إلى منتهى ضعفنا قبل أن نصل إلى مدى وجودنا وأن قلبنا قد يميته الضعف قبل أن نموت . وهؤلاء الأبيقوريون السخفاء الذين يريدون ألا تضيع منهم فرصة يضيعون الفرص جميعاً ، وشأنهم وهم يسرفون فى الوقت ويدعون القصد فيه شأن البخيل يحل به الخراب لأنه لا يحسن النزول عن شىء يقضى الظرف بالنزول عنه . أما أنا فآخذ بنقيض هذا الرأى مع ميل للشدة فيه وميل عن التراخى أياً كان مقداره . وقد صادفنى أن وقفت دون استكمال بعض ملذات رأيتنى شغفت بها فلما عدت بعد ذلك إليها حصلت منها على ضعف المتاع ولم آل جهداً خلال ذلك كله فى أن أجعل لإرادتى الحكم على نفسى مفضلة أن أرمى بالتشبث من أن أدع لشهواتى الحكم علىّ » .

يذكر القارئ إلى جانب هذه الصور من أنواع ملذات جولى صورة معاملتها لزوجها وأولادها وأصدقائها وأتباعها على نحو ما وصفناه فى الفصل السابق ، وتلك كلها هى قواعد الخلق التى يراها روسو . وتلك هى عنده فضائل الحياة ومفاتيح السعادة . لكن استفزاز هذه العواطف وتثبيت هذه القواعد فى نفس الناشئ لا يكون بإملائها عليه ، إذ لا بقاء لعاطفة ولا لقاعدة ولا لفكرة تملى من غير أن يكون لها أساس متين ، بل هى أسرع ما يكون للتطور والتغير لتلائم مزاج صاحبها ونزعاته النفسية ، فلابد إذن من تركيز إحساس معين عند الناشئ تتفرع عليه العواطف والقواعد بطبعها وتؤتى ثمرها كما تنبت الفروع من الجزع ثم تؤتى أكلها نقيًّا سليماً ما دام الجزع قويًّا صحيحاً .

والأساس المتين لهذه العواطف والقواعد هو الشفقة والكرم . والشفقة عند روسو عاطفة طبيعية لأن أساسها الألم . يكفى أن يعرف الطفل أن أمثاله يتألمون كما يتألم وأن لهم آلاماً خاصة بهم ليعلم أنهم حقيقون بالعطف وبالمرحمة ؛ فإذا تعهد الأستاذ هذا الإحساس الطبيعى فى نفس الطفل بأن عرض عليه

مواضع الإشفاق واشترك معه فى مؤاساة المكلوم والعطف على البائس وأبعده عما يميت هذا الشعور عنده كان قد مهد السبيل لأرقى تربية خلقية ننتظرها .

لا يرضى هذا الرأى أنصار النضال وبقاء الأصلح من فلاسفة الأخلاق . هم يقولون إن عواطف الرحمة والإشفاق عواطف مخنثة تأباها الطبيعة التى لا تعنى ببقـاء الضعفاء ، وقد نصبت التفاعل بين مختلف العناصر ومختلف الذرات أساساً لنظام الوجود . وما نفضل أحد الرأيين على الآخر ونحن نعتقد أن الحياة الإنسانية هى المثل الأعلى لدوام المور والحركة . فما يصدق على بعض الأحياء قد يصدق عليها حيناً ثم لا يصدق فى حين آخر . وإذا نحن سلمنا بنظرية النضال إلى منتهى مداها نفينا نظرية التعاون والتضامن ، وهى ليست أقل منها تمكناً فى حياة الوجود وفتحنا باباً للظلم الفادح باسم النضال . وإذا سلمنا بنظرية الشفقة نفينا نظرية التنافس ، والتنافس حادث اجتماعى لا سبيل إلى نفيه . وكذلك ترى أن الشأن هنا كالشأن فى كل الأحداث الاجتماعية ، لا تستطيع إخضاعها لقانون نظرى متطرف لأنها تجمع بين دفتيها متناقض الأطراف .

على أن لروسو عذراً واضحاً فى تكوين نظريته . فهو مسيحى لم يخرجه تقلبه بين البروتستانتية والكثلكة ومعاشرته للمتشككة والملحدين عن مسيحيته ، بل بقى مؤمناً ثابت الإيمان بانياً إياه على قواعد وحجج سيراها القارئ قريباً . والمسيحية دين الشفقة والرحمة . فطبيعى أن يؤمن روسو بها وأن يعتبرها أساساً للحياة الأخلاقية .

ثم إن حياة روسو وسبيله فى العيش وما مر به من بؤس واحتمله من مكروه كل ذلك لم يكن إلا ليزيده إيماناً بمبادئ المسيحية المحسنة الكريمة التى تجعل فى معونة الفقير والبائس كبرى الفضائل .

وإنا ننقل هنا نص القواعد التى وضعها روسو ليسير عليها المعلم فى تربية تلميذه الأخلاقية . . ! « ليس من شأن القلب الإنسانى أن يتربع فى مكان من هم أسعد منا بل فى مكان من هم أجدر منا بالإشفاق والمرحمة . . وأنت لا ترق لما يصيب سواك من أوصاب إلا لـ تعتقد أنك فى غير منجاة منه . . والناس لا يشفقون على المصاب بمقدار مصيبته ولكن بمقدار ما يحسبونه من تألمه لتلك المصيبة ». وقد أيد روسو هذه القواعد على اعتبار أنها الواقع ، ثم شرح كيف يهيئ تلميذه

بالأمثلة المحسوسة للشعور مع الإنسانية المظلومة مقدراً أن ذلك الشعور هو أساس السعادة ثم قال : « سيلومنى لا شك أكثر من قارئ على نسيان ما عزمت عليه بادئ الرأى وما وعدت به تلميذى من سعادة دائمة . فأى سعادة وأى متاع يجده القلب الشاب حين تفتحه للحياة فى مناظر التعساء والمائتين ومشاهد الألم والبؤس . كأن معلمه التعس الذى هيأه لحياة ناعمة لم يعده إلا للشقاء والألم . ذلك ما سيقال ولكنه لا يهمنى فقد آليت على نفسى أن أجعل تلميذى سعيداً لا أن أعده ليتظاهر بالسعادة » . والسعادة لا تكون إلا بمشاركة الناس فى آلامهم والعمل لتخفيف ما يعانونه منها ، أما النفوس التى تُظهر غير ما تُبطن فتملى أفكار الانتقام على ثغرها الخداع بسمات الغدر . وهى تتقن ضحكة الاستهزاء ولا تعرف ضحكة السرور ، وتحمل فى تجاعيدها الوقاحة الظريفة والظرف الوقح . تلك النفوس لا يفتر الألم يحز فيها حتى يميتها ويفقدها أرقى المعانى الإنسانية : معنى الشعور والواجب .

الواجب ؟ أحسبنى بهذه الكلمة قد عدوت فكرة روسو . فهو لم يكن يعرف الواجب كثيراً . وهل ترى فى الجمعية التى يصبو هو إليها ، تلك الجمعية الساذجة التى لم تغادر بعد حدود الحياة المستوحشة ، تلك الجمعية الزاهدة فى نعم العيش لتكون بعيدة عن آلامه . تلك الجمعية الصريحة بطبيعة تكوينها والتى لا تحتاج فى الحياة إلى كبير عناء لتحصل على كل مطالب الحياة . هل ترى فى تلك الجمعية معنى حقيقياً لكلمة الواجب أو تراها جمعية تتحكم فيها الفطرة كما تتحكم فى أنواع الحيوان الأخرى ؟ .

لذلك كان كل معنى الواجب عند روسو هو العودة إلى هذه الجمعية العائشة على بساطة الفطرة فى أحضان الطبيعة السعيدة ينعم أفرادها جميعاً بنعمة المساواة ، ثم لا يفسدها عليهم ما يستلزمه الترف من كثرة الحاجات ومن الاشتباك بالغير اشتباكا ينتهى بالخضوع وبالفساد . بل يبقى كل منهم قليل الحاجات بعيداً عن الخضوع للغير كامل الحرية موفور السعادة .

* * *

وهنا ينتقل روسو للكلام عن التربية السياسية . وهى فى رأيه جزء من قواعد الخلق : « أما أولئك الذين يريدون أن ينظروا فى السياسة وفى الخلق منفصلين فلن يفهموا أياً منهما » . لكن التربية السياسية تتطلب تعليماً إيجابياً ، فقد بلغ

الناس من الإمعان فى الفساد حتى لو أنك تركت الناشئ يحكم عليهم بالنظر إليهم والبحث فى شئونهم لانتهى به الأمر للتقزز منهم ولكرههم ، أما إن عرف أنهم فى الخطيئة عن غير قصد منهم ، وأنها ظروف التطور هى التى دفعت بهم إليها إذن لأخذته الشفقة من أجلهم والرأفة بحالهم . ثم لفكر فى سبيل الإصلاح الواجب اتباعها للخروج بهم من شقائهم .

وسبيل الإصلاح التى يريد روسو أن يلقنها تلميذه هى تلك السبيل التى نادى هو بها من قبل فى خطاب العلوم والفنون وفى خطاب التفاوت وفى خطاب المناظر . فالإنسان طيب بطبعه والمساواة حال طبيعية أفسدها الناس فى جماعاتهم ثم هم لا يزالون يتشدقون باسمها . فهم يتكلمون عن المساواة أمام القانون أو المساواة فى الحقوق وهى ليست إلا خيالا ووهماً . . فإن الوسائل التى أعدت لصيانتها تعمل على هدمها والقوة العامة تفسد بانحيازها للقوى كل توازن أقامته الطبيعة بين الناس . والروح العامة لقوانين كل البلاد تميز القوى على الضعيف ومن يملك على من لا يملك . هذا عيب لا مفر منه ولا استثناء له » وإذ قد ترتب على التفاوت ما ترزح الإنسانية تحته من شقاء وتعس ، فلا بد من إعداد الناشئة لتخليصها من هذا الهم القتال . ولن يكون ذلك إلا إذا وجهت عواطف النشء لإقامة جماعة لا يكون لطائفة فيها امتياز على طائفة ويخضع فيها الكل للقانون على السواء ويكون حماة القانون فيها أكبر من أن تؤثر فيهم الاعتبارات الخاصة وأحرص من كل من سواهم على جعل الشرع مظهراً للإرادة العامة حتى يكون كل فرد إنما يطيع إرادة هو فيها شريك وسلطاناً هو من بين أصحابه . وبذلك يمكن أن تتحقق فكرة المساواة أمام القانون على نحو ما يريدها متشدقو ذلك العصر .

لسنا بحاجة للدخول فى تفاصيل النظام فسيكون موضع ذلك عند الكلام على كتاب العقد الاجتماعى . وإنما نقول إن وسيلة تعويد النشء على الميل إليه وملاحظة الجماعات والشعوب ، وليس من شك فى أن روسو أميل إلى الشعوب والجماعات الصغيرة ، وقد رأى القارئ من ذلك الميل شيئاً غير قليل فى رواية الهلويز وعرف أن سببه ما كان عند روسو من الهيام بوطنه جنيف هياماً كانت تزيده المساآت والآلام قوة وتأصلا .

إلى جانب الأسفار تجىء قراءة كتب التاريخ وقد سبق بنا القول فى شأنها

وفى رأى روسو فى كتب التاريخ وفى تراجم الأبطال بما لا يدع محلاً للعودة إليه أو للمزيد فيه .

ما أشك فى أن القارئ قد ساءل نفسه غير مرة : والمسألة الدينية ؟ الإله ، سر الوجود ، الأبدى ، إننى لم أسمع بعد عن شيء من ذلك كله كلمة وقد سمعت أن روسو رجل مؤمن متدين مولع بدينه وبالبحث فيه . فكيف به وقد نسى تلميذه فى ظلمات الجهل من هذه الجهة وكأنى به يريد تخريجه زنديقاً ملحداً .

رويدك يا سيدى القارئ . إن روسو لا يريد أن يعرض على الطفل شيئاً ليحفظه عن ظاهر قلبه من غير أن يفهمه . ذلك بأنه يرى أن عرض الحقيقة على من لا تسمح لهم عقولهم بفهمها يحل محلها الخطأ والضلال والمسائل الفلسفية والمسألة الدينية ليست فى متناول العقول الساذجة ولا مما تستطيع عقول الأطفال دركه وتفهمه . فإذا أنت عرضت على الطفل أية فكرة عن الله رأيته قدس الصورة فى خياله من غير أن تقرها ملكات عقله . وخطر ذلك صريح واضح . فالطفل المقدس بخياله يصبح متعصباً تعصباً أعمى كارهاً لإخوانه بنى الإنسان الذين لا يدينون بدينه لغير سبب يفهمه . ولعمرك هل ترى فرقاً بين تعصب مسلم الآستانة ومسيحى باريس . فأيهما على الحق . ولو أن مسيحى باريس ولد عند قرن الذهب من أبوين مسلمين أو لو أن مسلم الآستانة ولد على ضفاف السين وألقيت إليهما فكرة الدين قبل أن يصل أحدهما لإدراكها أفلا ينقلب الحال فى شأن التعصب . ثم هما فى تعصبهما على الباطل جميعاً وإن كانت عقيدتاهما متقاربتين تحويان من الحق مقادير متعادلة .

كذلك يقول روسو إذ يرى فى عرض مسائل الدين والفلسفة على الأطفال خطراً غير قليل . وحجته فى هذا أن عاقبة تلقين قواعد الدين للطفل أن يبقى طوال حياته طفلا فى تعصبه لها وغضبه من أجلها ونفوره ممن لا يشاركه فيها ، أو أن ينفر من هذه القواعد متى بلغ رشاده وينفيها جميعاً لما يخالط حقها من باطل ولما تقف بجمود بعض قواعدها فى وجه الحياة وفى سبيل العلم .

وليس من شك فى أن حشد الخيال إبان الصغر بالأفكار العالية الخاصة بالروح وبخلودها وبالاختيار وبالجبر وبالله وبصفاته مما لا يستطيع الذهن له إدراكاً يجعلنا نأبى العودة لبحث هذه المسائل إبان الرجولة إذ تصبح فى نظرنا وكأنها

من خصائص الأطفال . فإذا نحن عنينا ببحثها بعد ذلك واجهنا حتماً بعض تفاهات وسخائف مما كانت طفولتنا تقضى بإضافته على هذه الأفكار السامية حتى يستطيع خيالنا الغض أن يسيغها . فإما رجعنا أمام هذه التفاهات إلى حرز الإيمان والتسليم وبقينا فى تعصبنا القديم ، وإما تقززنا بسبب هذه السخائف مما كنا من قبل نفر منه فنفيناه . والأقلون منا هم الذين يصبرون ويصابرون لتمحيص تلك الأفكار تمحيصاً جدياً من جديد .

على أن روسو لم يسلم فى هذه المسألة من اعتراضين عمليين : أولهما قائم على اعتبار العقيدة والدين قاعدة للخلق ووسيلة عملية للسير فى الحياة ، فهما يكبحان جماح النفس ويحولان بينها وبين النقائص لتقريرهما حرمتها ولبيان ما يترتب عليها من الجزاء فى الآخرة . وهذا الرأى الذى أبداه جول لمتر لا يقوم عند كثيرين اعتراضاً على روسو . فقد جعل روسو من تربية الحوادث ما يقمع فى النفس ثورة الشر إن راضت الشاب على حسن تقدير النتائج بعد فهم مسبباتها . فالشاب الذى رباه روسو لا يرتكب الشر إشاحة بقلبه الطاهر عن الشر ونظراً لما يترتب عليه من النتائج السيئة ولو فى مستقبل بعيد . وليس من شك فى أنه فى هذا يفضل المبتعد عن الشر لغير سبب إلا مخافة عقاب الآخرة .

أما الاعتراض الثانى فقائم على أنك لن تضمن بقاء الطفل بعيداً عن المسألة فى أمور الدين إلى أن تعرضها عليه . فإن طلعة الصغار شديدة ولا تخشى مفاجأة أصعب المسائل . وأى طفل لم يسأل من أمور الحياة فى أدقها ؟ فكيف كان الماء ؟ أمطرته السحب . وكيف كانت السحب ؟ كونها بخار الماء المتصاعد بسبب حرارة الشمس . ولكن كيف كانت الشمس وكيف كان الماء ؟ هذه سلسلة من المسائل التى ترد على لسان الأطفال والتى يفر أكثر الآباء منها عن الله بعرض فكرة يضل فيها خيال الطفل زمناً ثم يكبرها بسبب هذا الضلال ثم يؤمن بها بسبب إكباره إياها ثم تصبح عنده عقيدة على نحو ما سبق بيانه . ولا سبيل لاتقاء الخطر إلا بإلزام الطفل السكوت . وما دام تلميذ روسو قد اعتاد الطاعة فهو لا يجد فى هذا السكوت خروجاً على قاعدة سابقة .

إلى جانب الاعتراضين العمليين السابقين يوجه إلى روسو اعتراض عام . لماذا يرى ضرورة عرض المسألة الدينية على الشاب عن طريق التعليم والتلقين

ما دام الشاب قد وصل من ملاحظاته ومن سنه إلى مقام يسمح له بفحص الأشياء والأفكار وبتقديرها قيمتها . أفلا كان من الواجب أن تطرح عليه أوجه النظر المختلفة بله المتناقضة ليمحصها وليختار منها ما يشاء . وإذا كان روسو قد انتقل من البروتستانتية إلى الكثلكة واختلط بالملحدين وبحث هذا كله ووصل منه إلى رأى ونتيجة ، فلم لا يسمح لتلميذه بمثل هذه الحرية فى البحث والنظر . . إن نظريات التدين والإلحاد والشك كثيرة يتباين بعضها ويتقارب البعض مع وجود اختلاف يسمح لكل أن يكون ذا شخصية مستقلة بارزة . وهل نظرة كل منا إلى هذه المسائل إلا متعلقة بمزاجه وبأمنيته فى السعادة . . أو على الأقل فى الطمأنينة فى الحياة . فالمعتزل والمتقشف يبغى من عزلته ومن تقشفه ما يبغيه المترف والمتطرف فى الأبيقورية من نعمة السعادة . ألم تر قوماً نزلوا عن كل معانى النعمة وأخذوا بأسباب الزهد طمعاً فى السعادة . وهل لم تر آخرين كانوا قد زهدوا فى الحياة ثم رأوا زهدهم سخرية وهزواً فرجعوا إلى الحياة ونعيمها معتبرين الألم عرضاً مهما تطاول به العهد مؤمنين بساعة النعيم مقدرين فيها عوضاً عن كل شقاوة وتعس .

والزاهدون يقيمون رأيهم فى الزهد على إحدى فكرتين متناقضتين . . التخلى عن لذائذ هذا العالم طمعاً فى نعيم العالم الآخر ، أو التخلى عن كل نعيم ولذة لأن اللذة والنعيم هما أساس الشقاوة والألم . كذلك يقيم الناعمون رأيهم على فكرتين متناقضتين . . الاقتناع بأن هذه الحياة الدنيا هى دار النعيم . أو القول بالعمل للدنيا كأنك تعيش فيها أبداً وللآخرة كأنك تموت غدا . فأى هؤلاء جميعاً على الحق ؟ ولم تريد بتلميذك أن يأخذ فى سبيل ربما كانت أضل السبل إذا قرنت إلى مزاجه ؟

لكن روسو لم يفكر فى هذا الاعتراض ولم يعن به : هو قد وصل إلى رأى اعتقده حقًّا . وهو يرى وجوب الوصول بتلميذه لدرك هذا الحق .

* * *

ما هو هذا الحق الذى سيعرضه روسو على تلميذه . إنه يرى فى الأديان جميعاً أساساً لحقيقة . ويرى التعصب لأى دين سخافة لا تغتفر . ويرى الإيمان أمراً لا يحتمل الشك . لهذا فهو سيعرض على تلميذه الذى رباه ليكون رجل الطبيعة ديناً هو الدين الطبيعى ، وسيعرضه على لسان قس من السافوا مخافة

أن يؤخذ هو به وينفى من أجله .

يذكر القارئ أن روسو كان أيام تشرده فى إيطاليا بعد تركه مدام دفارانس قد دخل ديراً فى تورين وقد قابل بعد ذلك قسيساً اسمه جيم قال روسو فى اعترافاته إنه هو الذى هداه فى عقيدته وإنه هو قسيس السافوا الذى ضربه مثلا لصاحب الديانة الطبيعية فى كتاب التربية . على أن مراجعة تعاليم قسيس السافوا فى كتاب التربية تقنعنا أن هذا القسيس الداعى للديانة الطبيعية هو روسو نفسه . وهو هنا كأميل فى التربية وكسان برى فى الهلويز وكالرجل الطبيعى فى خطاب التفاوت ، تلك الصورة المحبوبة التى يعشقها روسو من كل قلبه : صورة ذاته على ما يجب لذاته أن تكون .

ولد هذا القسيس مزارعاً فقيراً مهيأ بمركزه الاجتماعى لفلاحة الأرض واستغلالها ، لكن أبواه أرادا أن يخرج من هذه المهنة ليكون رجلا من رجال الدين . وهما لم يريدا ذلك حباً فى الحق ولكن طمعاً فى مركز أحسن لابنهما .

بلغ الغلام ما أراد أبواه أن يبلغه ، وأصبح قساً ومنع عليه أن تكون له زوج أو أسرة .

وعلى الرغم مما يبيحه له مركزه من الاختلاط بالعائلات فقد كان شديد الاحترام لفراش غيره . لذلك انفضحت أغلاطه وغضب رئيسه عليه فشعر بالظلم وثارت نفسه ضد ما غرس فيها من تعاليم الكنيسة عن العدل والحق والشرف وشك فى كل ما كان من قبل مقتنعاً بصحته .

« تلك حال حرجة أليمة فليس من شأنها أن تدوم . وإنما يحبسنا عندها مقتضى النقص أو خمول الفؤاد . ولم يكن قلبى من الفساد بحيث أستريح لها . وخير ما يحفظ علينا عادة التفكير أن نكون أكثر اطمئناناً لأنفسنا منا لحظنا » .

فاندفع يفكر فيما عرض عليه من قبل مطرحاً أقوال غيره جانباً : « فما من مفكر إلا يعلم أن طريقته ليست أحسن من طريقة سواه ولكنه يؤيدها لأنها طريقته . ومن منهم بعد ما عرف الحق من الباطل إلا يفضل الكذب الذى أبدعه على الحقيقة التى كشف عنها غيره . وأين ترى ذلك الفيلسوف الذى لا يرضى لمجده أن يضلل مختاراً بالنوع الإنسانى كله . فتفكير كل لذاته أجدى عليه من تلك الطرائق التى وضعها أصحابها سلماً للمجد ووسيلة للشهرة » .

(ذلك رأى روسو ، فما رأى القارئ فى طريقة روسو وما رأى روسو فى طريقته ؟) .

وأول ما وصل القسيس إليه من تفكيره أن وقف بأبحاثه عندما يعنيه مباشرة مستعيناً فى ذلك بنور نفسه لا بما لغيره من لألاء كاذب . وقد هداه نور نفسه من أول الأمر إلى الإيمان بالله ، ولم تكن هدايته للإيمان نتيجة حجة أو دليل ولكن لأن الإيمان نظرية عظيمة مسلية تسمو بالنفس وتضع للفضيلة أساسها وقوامها . وهى كذلك واضحة جلية لا يجد الذهن الإنسانى فيها من التعقيد ما يجده فى سخافات الأفكار الأخرى . وما دام قصور الذهن الإنسانى يعجزه عن حل بعض الاعتراضات التى توجه لكل النظريات فلا يصح اعتبار هذا العجز حجة قائمة ضد أية نظرية يقرها العقل ويهدى إليها نور النفس .

ذلك تدليل قسيس السافوا فى أمر النظرية الإلهية . أما نظرية الاختيار فى الحياة فقائمة عنده على أن الحركات قسمان : إرادية Spontané ونقلية Communiqué ، فأما النقلية فترجع إلى سبب خارج عن الجسم المتحرك ، وأما الإرادية فقائمة به . والنقلية كحركة الساعة لا تتحرك إلا بدافع غير قائم بها . أما حركة الحيوان فأدخل عند روسو فى باب الحركات الإرادية .

فإن شئت أن تعلم كيف عرف روسو أن هناك حركات إرادية فهو يقول لك : « أنا أعلم بها لأنى أحسها . أنا أريد أن أحرك ذراعى فأحركها من غير أن يكون ثمت سبب مباشر إلا إرادتى . وعبثاً يحاول من يريد إقامة الحجة ليفسد عندى هذا الإحساس ، فهو عندى أقوى من كل شاهد . وإلا لصح أن تقام لى الحجة على أننى غير موجود » .

وكأنما شعر روسو أن النور الداخلى ليس كافياً هنا كفايته فى النظرية الإلهية . لأن الحركة مظهر محسوس مصدره المادة المحسوسة . فذهب إلى أن الأصل فى المادة السكون وإلى أن الذرة الحية ليست من الأمور الممكنة الفهم عنده . وما دام السكون هو الأصل فى المادة فالحركة عرض خارج عنها لا يتأتى إلا بإرادة غير ماثلة فيها . وهذه الإرادة هى بالنسبة للعوالم قوة الإله المسيرة للكون على سنن معينة ، وبالنسبة للإنسان إرادته الذاتية المختارة فى حركتها .

لا أريد أن أعرض لنقد هذه الفكرة بأكثر من أن ما عجز روسو عن تصوره من وجود الذرة الحية وحركتها قد أصبح حقيقة لا تحتمل الجدل . ومن أن السنن

المعينة التى يسير عليها الكون تحكم الجماعة الإنسانية وتحكم الفرد حكماً يجعل الحرية وهماً إن أمكن تصور خياله فى الجزئيات التافهة فمحال تصوره فى مجموع الحياة المؤثرة كل التأثير على هذه الجزئيات (١) .

والآن فلنتخط هذه المسألة لما بعدها . . « إذا كشفت لى المادة المحركة عن إرادة فإن المادة المحركة وفاقاً لقوانين ثابتة تكشف لى عن بصيرة . والإرادة والبصيرة من عمل موجود تراه عيوننا فى السماوات الدائرة والنجم المضىء وفى كل حى وفى كل مظهر » . . وهنا ينطلق روسو يذكر الوجود والموجد بقوة وحرارة إيمان قل إن ارتقى إلى مثلهما كاتب من قبله . وهنا يرتعش أسلوبه تارة وينزل على الماديين غضبه أخرى ثم يرتفع بتصوره إلى ارتباط ما بين الكائنات ارتباطاً لا يمكن حدوثه عبثاً . وهنا يمهد روسو لرجال الكنيسة فى فرنسا السبيل للأمر بالقبض عليه كهرطيق خارج على الكنيسة فيفر من فرنسا ويقابل فى كل مكان باللعنة لهرطقته ولمحاربته قواعد الإيمان .

« هـذا الموجود الذى يريد ويقدر والقائم نشاطه بذاته . هـذا الموجود الذى يحرك الوجود ويدبر كل شىء هو أياً كان شأنه ذلك الذى أسميه الله . وإلى هذا الاسم أقرن صور البصيرة والقوة والإرادة والطيبة التى تترتب حتماً عليها . ولكنى لم أعرف ماهية هذا الموجود الذى أطلقت عليه ذلك الاسم بل هو خفى على حسى وعلى ذهنى سواء بسواء . وأنا كلما فكرت فيه ازددت حيرة واختلاطاً . فأنا أعلم قطعاً أنه موجود وأنه قائم بذاته . وأعلم أن وجودى تابع لوجوده . وأن كل الأشياء التى أعرفها شأنها فى ذلك شأنى . أنا أرى الله فى كل مكان تدل عليه خلائقه . أنا أشعر به فى نفسى وأراه فى كل ما حولى . لكنى كلما حاولت مشاهدته فى نفسه والبحث عن مكانه وعن ماهيته وكيانه غاب عنى ولم ير ذهنى المضطرب من ذلك شيئاً » .

لهذا لا محل للبحث فيما ليس للوصول إليه سبيل . ولهذا انتقل قسيس السافوا للنظر فى أمر الإنسان . فرأى أنه خير الخلائق لأنه من دونها جميعاً هو الذى

---

(١) راجع ما نشرناه مطولا فى أعداد يناير وفبراير ومارس وأبريل ومايو من مجلة المقتطف سنة ١٩١٧ بعنوان القدرية والجبرية . (نشرت هذه المقالات فى الفصل الرابع من كتاب الإيمان والمعرفة والفلسفة سنة ١٩٦٤ – للمؤلف – الناشر) .

يستطيع ملاحظتها والحكم عليها والتحكم فيها . لكن أفضليته عليها لا تدعو إلى كبرياء ولا إلى مجد وفخر ، بل إلى اعتراف بمجد الله وبحسن صنيعه .

هذا المخلوق المفضل . هذا الإنسان الذى يحكم على غيره ويتحكم فيه . هذا الجالس من الوجود فى الذروة إلى جانب عرش خالق الوجود . هذا الإنسان ليس مع سمو مكانه ممتعاً بما يتمتع به غيره من حيوان ومخلوق من سعادة . هو أشقى منها جميعاً . هو الذى يقاسى آلام التفاوت وشقوة الظلم والتعس ، فكيف كان هذا التناقض .

الحقيقة ألا تناقض إلا عند الماديين ، وإنما هو الاختلاف بين الروح والجسد . فالروح تتعلق بالحقائق الخالدة وبالعدالة وبالعالم النفسانى الذى يعيش العاقل الحكيم فى عليا مناطقه . والجسد ينزل إلى حكم الحواس والشهوات وكل ما هنالك مما فى عالم النقص والفساد . . وليس من روح إلا للإنسان . أما الماديون الذين يقولون بأن الحجر يشعر كما يشعر الإنسان وأن القوة ليست إلا مظهراً من مظاهر المادة فإنما يحكمون على الأشياء الروحية التى لا يسهل على العقل الإنسانى دركها حكم الأصم على الأصوات ينكرها لأنه لا يحس بها وهى مع ذلك حاصلة . كذلك ينكر الماديون الروح لأنهم لا يحسون منها ذلك السلطان المصرف لحوادث الكون . فكما أن الأصوات توجد برغم إنكار الأصم كذلك توجد الروح برغم إنكار المادى .

تلك تعاليم روسو . ويجب أن يكون الإنسان روحيًّا ليؤمن بها وليقدر مداها ، كما يجب أن يكون الإنسان سمعيًّا ليقدر حجج السميع والأصم ويحكم بينهما . ذلك مع وجود فرق بين الحالين ؛ فالسمع حاسة تتصل بالوجود المحسوس فى أثرها وتأثرها . والروح التى يعبر عنها روسو قوة تتصل بالعالم المعنوى من غير أن يكون لها فى العالم المحسوس أثر محسوس .

وجود الروح ينفى التناقض الذى يزعمه الماديون ؛ ذلك بأن الإنسان كما سبق القول مريد مختار . وليس معنى الاختيار الضرب فى تيهاء الفوضى . فأنا بلا شك لست حرًّا فى ألا أريد الخير لنفسى . ولست حرًّا فى إرادة الشر لنفسى . وإنما قوام حريتى ألا أريد إلا ما يوافقنى أو ما أراه من غير أن يكون لشىء سواى مدخل فى اختيارى . وليس تفسير الاختيار على هذه الصورة بالعجيب .

فإن الله خلق الإنسان على صورته . والله لا يريد إلا الخير لتعلقه بطبيعة وجوده . والخير هو التوازن وهو نظام العالم . فالشر خروج على النظام وإخلال بالتوازن . وهو مهما تعاظم فلن يصل من الإخلال بالتوازن إلى شيء فى أمر العالم العظيم . لهذا لا محل للتساؤل عن سبب عدم مداخلة الموجود الأعلى لمنع هذا الشر ولكبح جماح الفساد . ولهذا كان الإنسان أكثر اختياراً وأثقل مسئولية .

اختيار الخير أساس السعادة . أما الشر فلا يلد إلا بؤساً وتعساً ، وأحزاننا ومخاوفنا وآلامنا إنما تصيبنا من عند أنفسنا . والشر الخلقى هو قطعاً من عملنا كما أن الشر الجسمى لن يكون شيئاً لولا فسادنا الذى يجعلنا نحس هذا الشر ونشعر به . ألا ترى إلى الطبيعة كيف جعلتنا نحس بحاجاتنا حتى يظل وجودنا . ألا ترى أن الألم المادى إنما هو آية ارتباك جسمنا والنذير لاتقاء هذا الارتباك . أما الموت فهو الدواء لما توقعك فيه أعمالك من الشرور . ذلك بأن الطبيعة أرادت ألا يمتد بك الألم إلى الأبد .

وما أقل ما يلقاه الرجل الذى يعيش عيش البساطة الفطرية من مواضع الألم . فهو يعيش من غير مرض ومن غير شهوة وهو لا يتوقع الموت ولا يحس به . فإذا هو أحسه كان فيه راغباً بقدر حبه فى الخلاص من شقوته وآلامه . وكان لذلك لا يرى فيه شرًّا ، ولو أنك خلصت الناس من هذا التقدم المزعوم ومما جره عليهم من شرور وخطايا ثم لو أنك رجعت بهم إلى عيش الطبيعة ووحيها إذن لأنجيتهم من الشر ومن العذاب ومن خوف الموت .

واختيار الخير من عمل الروح والارتكاس فى الشر من نزوات شهوات الجسد ، وما ننزل إليه من درك الشر طوعاً بحكم الشهوة وخروجاً على أمر الروح هو الذى يسرع بجسدنا إلى الفناء وهو الذى يجعلنا نشعر بألم الموت . وأولئك المنعمون الذين يظلمون الناس ويضربون بالفضيلة عرض الأفق ويزعمون النعيم على هذه الأرض هم الذين يقاسون هذا الألم أكثر من سواهم ، ذلك عدل الخبير البصير ..

يوم تفترق الروح عن الجسد يرجع إليها كامل نشاطها ؛ فتبدأ بالتكفير عما سبق لها من ضعف فى قياد الجسد ومن خمول فى تغليب الخير على الشر . ويومئذ ترى الروح التى كانت مثقلة الجناح إبان عيش الجسد تحيا حياة طيبة بعد هلاكه .

« هل الروح خالدة بطبعها ؟ ذلك ما أجهله . فإن عقلى المحدود لا يسع شيئاً غير محدود . وكل ما لا نهاية له يعزب عنى . . وإنما أحسب أن الروح تبقى بعد الجسد أمدًا يكفل حسن النظام . وليس من يدرى إذا كان الأمد يمتد إلى الخلود ، ولكننى إذا قدرت على تصور كيفية هلاك الجسد وفنائه بتشتت أجزائه فلست أستطيع تصور هلاك كهذا للموجود المفكر . وما دمت لا أستطيع تصور كيفية هلاكه فأحسبه لا يهلك ، وما دام فى هذا الظن لى عزاء وليس فيه ما يتنافى مع العقل فلست أدرى ما الذى أخشاه إذا أنا أخذت به » .

. . إذن فالروح خالدة إن كان الدليل على وجودها مجرد إحساس روسو أن ليس لديه على هلاكها من دليل .

هذه الروح الخالدة تحيا حياة طيبة بعد هلاك الجسد ، وهى تحيا سعيدة أو شقية بما قام به صاحبها إبان حياة الجسد من خير أو شر . ذلك بأنها وقد جاورت الكائن الأسمى وخلصت من هموم الحياة الدنيا ترجع إلى نفسها تحاسبها عما قدمت ثم تقيسه إلى الحقيقة الخالدة البادية أمامها والتى كانت هى مثالاً لها على الأرض . . وليس يعلم قسيس السافوا إن كان ثمة جزاء للروح غير السعادة أو الشقاء فى جوار الله . وهو لا يعلم كذلك إذا كان شقاء الأرواح التعسة خالداً . وهو تكفير ينتهى بالغفران . ولكنه يشعر بأن السعادة فى جوار الله خير نعمة تجعل العيش على هذه الأرض لذة تدفع إلى معالجة الفضيلة ومجاهدة الشر فى أثناء الحياة . . وكيف لا يكون ذلك لذيذاً . وهل لذة فى الحياة إلا لذة المجهود الشاق ينتهى بنعمة السعادة الخالدة .

جزاء الروح نتيجة أعمالنا فى الحياة الدنيا . فإذا كانت روحنا قوية فأسمعتنا صوتها وأخذنا به ظلت سعيدة . وإن كانت ضعيفة فخضعت لحكم الجسد وأخضعتنا له كانت شقية . . « ذلك بأن الضمير صوت الروح والشهوات صوت الجسد . فهل عجب أن يغلب على هذين الصوتين التناقض . وإذن فلأى نستمع ؟ ما أكثر ما يضلنا العقل حتى لقد صار من حقنا الثابت أن نرد حكمه . أما الضمير فلن يضلنا . هو مرشد الإنسان الحق وهو للروح بمكان الفطرة من الجسد ، فمن اتبعه أطاع الطبيعة ولم يخش ضلالاً » .

الضمير صوت الروح ، والروح من أمر الله ، والله لا يريد إلا الخير ،

فالروح لا تعمل إلا للخير . والروح هى أساس وجودنا وهى القوة التى تبعث الحياة فى الجسد الكثيف . إذن فالخير فى أساس وجودنا . وإذن فالإنسان طيب بطبعه .

الإنسان طيب بطبعه . ما أعز هذه الصيغة على روسو . لقد رأيناها فى خطاب عدم المساواة ورأيناها فى كل ما كتب بعد ذلك . وها نحن أولاء اليوم نراه يدلل عليها تدليلا تجريدياً بعد ما دلل عليها تدليلاً تاريخياً .

وتدليله التجريدى فى أبسط صوره هو على ما رأيت أن الله خلق الإنسان على صورته . والله طيب بطبعه . فالإنسان طيب بطبعه . وليس فى مظاهر الحياة إلا ما يؤيد أن الشر ليس إلا خبثاً يغطى الأصل الطيب إلى حد إخفائه أحياناً ، ولكن من غير أن يحل محله أبداً . وهل رأيت نفساً مهما بلغ من قسوتها إلا متأهبة لعمل الخير عند سنوح الفرصة . وهل رأيتك يوماً وقد أفدت لنفسك بشر جنيته على غيرك إلا حز الندم فى قلبك ، فإذا أفدت غيرك خيراً تريد إفادته إياه رأيتك سعيداً أكبر السعادة . . وهلا ترانا جميعاً نفرح للخير ونجزع للشر ونظهر بالخير ونتوارى من جنى النكر « شأننا فى ذلك شأن الناس جميعاً . الق بنظرك على كل أمم الأرض وراجع كل التواريخ تر أفكار العدالة والأمانة كما ترى مبادئ الأخلاق وصور الخير والشر هى هى بعينها فيها جميعاً : ذلك بأن مبدأ العدالة والفضيلة أصيل فى أعماق النفوس ، ونحن على الرغم من قواعدنا نقيس على مقتضاه أعمالنا وأعمال سوانا وعلى مقتضاه نفرق بين الطيب منها والخبيث ، وهذا المبدأ هو ما أسميه أنا الضمير » . .

هنا يشعر روسو بالاعتراض يوجه إليه من كل جانب . فهو يرى ، أو بالأحرى يشعر ، بأن الضمير هو فكرة الخير القائمة بالنفس الإنسانية من حين خلقها . ويرى لذلك أن الخير والشر والحق والباطل والطيب والخبيث صور وأفكار ثابتة لا يعمل فيها زمان ولا مكان . أما غيره فيقول إن الضمير الفردى ليس إلا صورة وجدان المجموع منطبعة فى نفس الفرد . ولما كانت آى إيمان المجموع أفكاراً نسبية هى الأخرى لأنها ليست إلا التعبير عن أحسن الظروف التى يمكن للمجموع أن يعيش فيها فممكن بل حاصل أن آى الإيمان تختلف من جيل لجيل ومن أمة لأمة . ألست ترى أن النهب والسلب كانا مجدًا فى زمن من الأزمان وعلماً على

الفروسية ثم أصبحا من بعد ذلك جريمة تجزى بأشد العقاب . وقد بلغ احترام الملك الخاص مبلغ العقيدة العامة فى الماضى القريب ، وها هو ذا اليوم موضع الطعن والنضال من كل جانب . صحيح أن القواعد الأساسية لحياة الجماعات لم تتغير تغيراً جوهرياً فيما نعلم . وأن الفطرة الحاكمة فطرة الاحتفاظ بالوجود لا تزال توجهنا سبيلنا وتوحى إلينا بطرق سلوكنا . لكن هذه الفطرة ليست من أمر الروح . وهى ليست إلا ملاءمة الجزء للكل الذى يشمله ملاءمة مادية أولاً . وهذه الملاءمة تتغير صورها بتمور وجود الكل . وهذه الملاءمة هى التى تشكل الضمير الفردى على مقتضياتها .

على أن روسو لم يقف أمام هذه الاعتراضات ولم يرد عليها بأكثر من أنها لا تتفق مع حسه وشعوره ، وبأنه ليس محالاً أن تترتب أعمالنا على مقتضى ضميرنا وإدراكنا . ثم قضى عليها قضاء أخيراً بهذه الصيحة الخطابية الشعرية البديعة : « إيه أيها الضمير . إيه أيتها الفطرة الإلهية والصوت السماوى الخالد ، إيه أيها القائد المسكين لمخلوق جاهل قصير مدى النظر حر بصير . إيه أيها الحكم الفارق بين الخير والشر . إيه يا من تجعل الإنسان شبيهاً بالله . أنت الأساس لطبعه الطيب ولتأدب أعماله . ولست أرى شيئاً غيرك يرفعنى فوق البهائم إلا ما امتاز به من الضرب فى الضلال مستعيناً بذهن لا نظام له وبعقل ليس له من أساس ».

لكنه يشعر باعتراض آخر يحسبه ذا خطر . إذا كان الضمير هو صوت الروح والمرشد للخير فلم استعبدت الروح للجسد استعباداً يجعلها فى نضال مستمر معه . وبعبارة أخرى لم كان للشر مثل ما للخير على الأرض من سلطان .

إن القطع فى أمر الاعتراض لا يكون إلا لمن دخل فى علم الله . أما علمنا فيرشدنا إلى أن الشر إنما وجد على الأرض ليكون الخير ولتكون الفضيلة وليكون لمثوبتهما بالسعادة الخالدة فى الدار الآخرة موضع .

ولا سبيل للاستماع لصوت الضمير ووحى الروح إلا بالخلوص من حكم المادة . ولن يكون خلاص إلا بالعودة للحال الطبيعية ، فإن المدنية وأذيالها من ترف ونعيم ومن علوم وفنون ومن فلسفة وتفكير لا شأن لها إلا أن تغشى على الضمير وتحجب وحى الروح وتزيد فى حكم المادة وتقعد بالنفس عن الاتصال بملكوت الله . فإذا نحن نجونا من حكم المادة اتسع نطاق العالم أمامنا وامتدت إلى اللانهاية آفاق

روحنا فوجدنا فى هذه السعة مسرة للنفس وسبيلا للسعادة .

« ولأرتق قدر المستطاع إلى تلك الحال من السعادة والقوة والحرية جعلت أروض نفسى على التأملات العليا . فتأملت نظام العالم لا بغية تفسيره بعبث من الطرائق بل لدوام الإعجاب به وإجلالاً للخالق الحكيم الذى تظهر آثاره من خلاله . ثم ناجيته حتى استغرقت كل قواى فيه وحتى ذقت فضله وباركتنى روحه المقدسة لكنى لم أصل له ولم أرجه شيئاً . وأى شيء أطلب إليه . . أأطلب إليه أن يغير نظام الأشياء من أجلى أو أن يحدث المعجزات لمصلحتى . وهل كنت وأنا أعشق النظام الذى أقامته حكمته وأمسكته قدرته لأريد أن يضطرب هذا النظام لفائدتى ؟ كلا . فإن هذه الرغبة الخرقاء أجدر بأن تجزى منها بأن تجاب . ولست أطلب إليه أن يقدرنى على عمل الخير فما كان لى أن أطلب إليه ما سبق أن أعطاه لى » .

* * *

لاحظ القارئ من غير شك أن قسيس السافوا وهو رجل من رجال الدين لم يلجأ فى كل ما قدم من تعاليمه إلا لوحى الضمير وهدى البصيرة . وهذا ما لاحظه محدثه فى كتاب روسو ، فسأله رأيه فى الوحى والنبوة والرسالة ، فما لبث أن انطلق انطلاقته الأولى حين مجد الله ورآه فى كل أعماله . لكنه انطلق هنا ينفى الوحى والنبوة والرسالة بمثل تلك القوة والشدة ، وهو لم يكتف بنفيها بل جعلها أساساً لعدم التسامح بين الناس ولما جر إليه عدم التسامح من حروب أريقت فيها دماء وأزهقت فيها أرواح وما لا يزال يجر إليه من فتور علاقات الأخوة الإنسانية الواجب أن تكون .

قال : « يزعمون وجوب الوحى لتعليم الناس طريق عبادة الله ، ويقدمون دليلاً على زعمهم اختلاف الأديان العجيبة التى أقاموها ، ولا يرون أن هذا الاختلاف راجع إلى أذواق أصحاب الوحى ، فمن يوم أراد الناس بالله أن يتكلم استنطقه كل منهم على طريقته وجعله يقول ما يريد هو قوله ، ولو أنهم لم يستمعوا إلا لما تكن قلوبهم من قوله لما كان على الأرض إلا دين واحد » .

هذا الدين الواحد هو الدين الطبيعى الذى عرضه القسيس فى سابق تعاليمه . أما أديان الوحى فكثيرة ومتعددة ويدعى كل منها أنه دين الهدى والحق . فإذا سألت أصحابه كيف عرفتم أن دينكم دين الهدى والحق أجابوك « كذلك قال الله .

وما أدراك أن الله قاله . . إنه قسيسى وهو به عليم » .

عجب أن تكون تلك لهجة المؤمن روسو ، وهو هذا العجب الذى يدعونا لنفصل هنا بعض الشيء رأيه فى أمر الوحى والنبوة من غير أن نعرض له بنقد أو إقرار ولأن نكثر من ترجمة نصوصه التى أضافت فى هذا الباب إلى الصيغة الخطابية التى يمتاز بها أسلوب روسو صيغة تهكمية قد كان فولتير الملحد الساخر أحرى بها وأجدر .

وإنما دعا روسو لهذه اللهجة القاسية ما رآه وهو نصير حرية العقل والفكر من ضرورة مهاجمة سلطان الكنيسة المستبد مهاجمة عنيفة . ولما كان سلطان الكنيسة قائماً على الاستئثار بكلمة المسيح واحتكار تفسيرها واعتبار التفاسير جزأ منها وردها جميعاً إلى الله فلم يكن النقد البسيط كافيا لزعزعة تيار مستبد زاده مر القرون ثباتاً وقوة . صحيح أن قيام البروتستانتية فى القرن الخامس عشر وانتشارها بعد ذلك هد من ركن الكثلكة فى بلاد شتى . لكن البروتستانتية كانت مذهباً تعبدياً كالكثلكة وكل ما فيها أنها جعلت للشروح والتفاسير الكنائسية مكاناً ثانوياً إلى جانب الكتاب المقدس . فهى بذلك لم تكن إلا ثورة جزئية على النظام القائم . وهى بذلك لم تزد على أن أضافت فرقة جديدة من الفرق المتدينة المتعصبة لمذهبها المستعدة لأن تريق فى تعزيزه ونشره الدماء وتضحى بالمهج والأرواح . وليس هذا ما يريده روسو المتسامح عدو التعصب والجمود ، فلم يكن بد من قيامته فى وجه ما اعتقده أساس التعصب ، وأساس التعصب هو الانحياز الأعمى لشخص ورفعه عن مستوى البشر وتقديسه ثم تأليهه .

« ولولا بناء الدين على الوحى لما كان شيء من هذا التعصب والجمود . فلننظر الآن لهذا الوحى أساس المجازر والفظائع وإن يك عند أهله مهبط الهدى والحق .

« ماذا عندك يا رسول الحق مما لا حكم لعقلى عليه ؟ لقد تكلم الله فاستمع لوحيه ! ذلك شأن آخر ، لقد تكلم الله ، هذا أمر جلل ، ولن تكلم ؟ لقد كلم الناس . لم إذن لم أسمع أنا شيئاً ؟ لقد ألقى على رجال آخرين ليبلغونك كلمته . . الآن أرى ، هم إذن رجال يلقون إلى بما قاله الله ، إلا أنه أحب إلىَّ أن أسمع الله بنفسى . وما كان ذلك ليشق عليه ، وكنت أنا فى حرز من الضلال . لقد حفظك

منه بما ثبت به رسالة أنبيائه . وبم ثبتها ؟ بالمعجزات . وأين هاته المعجزات ؟ فى الكتب . ومن وضع هذه الكتب ؟ . رجال . ومن رأى هذه المعجزات ؟ رجال شهدوا بها عجباً . شهادات رجال دائماً ، رجال ينقلون إلىّ ما نقله إليهم رجال غيرهم ، ما أكثر الرجال بينى وبين الله ، فلننظر على كل حال ولنبحث ولنحقق ولنقارن، أو لو أعفانى الله من كل هذه المشقة كنت ترانى أقل إخلاصاً فى خدمته .

« لنفرض أن العظمة الإلهية رضيت أن تنحط فتجعل إنساناً واسطة إرادتها المقدسة ، أترى من العقل والعدل أن يفرض على الجنس البشرى كله طاعة هذا الرسول ما لم يبين الله للناس أنه رسوله ، وهل من الحق أن يكون كل ما لديه من دلائل الإقناع بعض مظاهر خاصة يقوم الرسول بها أمام نفر من الناس لا قيمة لهم ، ثم لا يعلم سائر الناس عن هذه المظاهر شيئاً إلا بالتناقل والإشاعة ، ولو أنك صدقت من المعجزات ما يقول الشعب والبسطاء من كل أمة إنهم رأوه لكانت كل طائفة هى طائفة الهدى ولكانت المعجزات أكثر من الظواهر الطبيعية عدداً ثم لكانت كبرى المعجزات انعدام المعجزات حيث يكثر المتعصبون الذين يلقون العنت فى دينهم ، تلك سنة الطبيعة لا تبديل فيها وهى تدل على حكمة اليد المدبرة للطبيعة ، فلو أن المستثنيات كثرت لضل بى التفكير فيها ، وإن إيمانى بالله لأجل من أن أصدق هذا الجم من معجزات لا تليق بحكمته ولا بكرامته » .

ولو أن الرسول الذى يزعم أنه من عند الله بدّل سنته فأطلع الشمس من المغرب وأخلف نظام الفلك ودك الجبال وغير معالم الأرض لصدقناه أن أتى فى الكون بما لا طاقة لغير مبدع الكون به . أما سخريات السحر فلا معجزة فيها ، أو ما ألقى سحرة فرعون عصيهم كما ألقى موسى عصاه فانقلبت حيات كلها ؟ وهل كان السحرة رسلاً صغاراً أو كان موسى ساحراً كبيراً . وإذا عجزت المعجزة عن إثبات الرسالة فكيف تثبت الرسالة المعجزة ، أم تكون بذلك فى حال من التداول لا تدل على شىء .

« يجب أن توسم الرسالة الآتية من عند الله بسيما الألوهية . فليس يكفى أن تستثير بها الأفكار المضطربة التى يلهمها التفكير لأذهاننا . بل يجب أن تعرض علينا عبادة وأدبا وقواعد جديدة لما نتصوره من صفات الله . فإذا هى لم ترشدنا

إلا للأشياء السخيفة غير المعقولة ولم تلهمنا إلا عواطف البغضاء لأمثالنا والجزع من أنفسنا ولم تصور لنا إلا إلها مغضباً غيوراً منتقماً محابياً كارهاً للناس إله حرب وضرب ، دائم الاستعداد لأن يهلك ويصعق ، لا ينفك يقص أمور العذاب والعقاب ويفخر حتى بمعاقبة الأبرياء « إذن لما مال قلبي إلى هذا الإله الفظيع ولحرصت على الديانة الطبيعية لا أتركها لاعتناق ذلك الدين ما دام لا محيص من الاختيار » .

وهذه الرسالات كلها تزعم أنها على الحق وأن غيرها على الباطل . وتذهب إلى رمى من لم يعتنقها بالكفر وتهديده بعذاب الآخرة الغليظ . هذا على أنك لن تستطيع أن ترد إلى دينه رجلاً ولد فى دين من الأديان فاختلطت عقائده بلحمه ودمه ثم ظل فى سذاجة ولم يجد من الوقت ومن العرفان ما يمكنه من بحث ألوف المجلدات التى كتبت فى الديانات المختلفة ليرى أصلحها . ولو أنه بلغ من العرفان هذا المبلغ لما كفت حياته كلها للوصول إلى هذه النتيجة . أفيترك الناس طرًّا أعمالهم وواجبات حياتهم للقيام بهذا البحث العقيم جرياً وراء ما يسمونه سلام أرواحهم وإن هم فعلوا ذلك أتراهم يصلون إلى شىء من هذا السلام ؟ أم تختلط أمام أفهامهم ألوف الصور المضطربة التى وضعها الروحيون والمتكلمون والفلاسفة والشعراء فيزدادون ضلالاً وينتهى بهم الأمر إلى الجنون .

وما قولك فيمن لم تصل لهم الرسالة ؟ أهم يجزون بعدم علمهم ؟ إن ألوفاً من ملايين البشر يدينون بغير المسيحية وبغير اليهودية وبغير المحمدية ، فهل أرواح هؤلاء جميعاً آوية حتماً إلى سقر . وهاته الأديان الثلاثة ، أيها على الحق . وما ذنب من ولد مسلماً بإسلامه وما ذنب من ولد يهودياً بيهوديته ؟ !

على أن الإنجيل يخاطب قلب قسيس السافوا ولا يستطيع له ردًّا ولو كانت حياة سقراط وموته لحكيم فإن حياة يسوع وموته لإله .

« هذا هو التشكك الذى بقيت فيه على غير إرادتى . لكنه تشكك غير أليم لأنه لا يشتمل خطير مسائل الحياة العملية ، ولأنى ثابت اليقين فى المبادئ المتعلقة بكل واجباتى . فأنا أعبد الله بقلب ساذج ولا أبحث عن علم مالا يقتضيه سلوكى » .

* * *

تلك تعاليم قسيس السافوا وتلك أسس الديانة الطبيعية . وقد أحدثت رجة

عند نشرها انتهت بالقبض على روسو كما سبقت بنا الإشارة وكما سنفصله فى فصل مقبل . وهذا الدين هو فى نظر العلماء الواقعيين (الوضعيين) آخر صور العقل التجريدى ومظهر احتضار الإيمان القلبى . ذلك بأنك متى أنكرت الوحى ورجعت إلى حكم العقل ورددت إلى الفرد حرية التفكير كنت قد أتحت لكل فرد أن يبحث ويحكم مادام على البحث والحكم قديراً ، ولن تضمن أن يتفق نظر الباحثين والعلماء مع نظر قسيس السافوا . أو لم ير قسيس السافوا نفسه أن فلاسفة عصره كانوا على خلاف فى الرأى معه . أو لم ير من بينهم الملحد والمتشكك والمادى . فأى ضمان له فى إيمان الجميع بالدين الطبيعى الذى يدعو إليه . هو مادام قد أطلق العقل من عقال الوهم ورفع عنه سلطان الكنيسة فقد أباح له الحرية الطبيعية الكاملة . وما دام حرًّا فلن تكون شعريات قسيس السافوا منتهى مدى نظره . بل سيخلف قسيس السافوا أوجست كومت ودارون وهربرت سبنسر وبرجسن وغيرهم من العلماء والفلاسفة والمفكرين . وسينادى لدانتك بالإلحاد المطلق وبالنفى ، وسيكون ذلك كله مظهر حرية الفكر التى دعا إليها روسو وستكون هذه الدعوة لذلك سبباً لمطاردة الكنيسة إياه بقية حياته .

* * *

إلى هنا عرف أميل الوجود وما فيه . وعرفه بعد ما تكونت ملكاته تكويناً يمكنه من الحكم عليه ، وإلى هنا انتهى دور الطفولة والتربية ، فهل لم يحن الوقت بعد ليتركه أستاذه لنفسه حرًّا ويعمل حرًّا ويعيش حرًّا .

ذلك رأى الأكثرين من علماء التربية ، ولكن حذار من اتباعه ، إن الشاب فى هذه السن أحوج ما يكون للمرشد المخلص الصدوق ، وإذا كان عقله قد بلغ حد القدرة على حكم الأشياء فإن شهواته الناشئة قد تضل حكمه وتفسد تربيته وتدفع به فى أسوأ السبل ، فى هذه السن تنفتح ينابيع الحياة الجنسية إلى حد قد تجرف معه حياة الشاب ثم تذره خاوياً ، وفى هذه السن ينفتح القلب للحب ، فما لم يكن له من أستاذه مرشد يهديه السبيل وسط هذه المخاطر زلت به القدم وسط الجماعات وبين الشباب الذى يقدم له المثل السيئ باندفاعه فى تيار الشهوات وإمعانه فى تحصيل كل ما يستطاع منها .

على أن الذين يميلون للنصح إلى الشباب فى هذه السن يرتكبون شتى الأغلاط

ويدفعون الشباب عن غير قصد إلى حمأة اللهو واللذائذ . وأول ما يرتكبونه من ذلك أنهم يلقون على الشباب من أعلى منابرهم قواعد السلوك وكأنما نسوا أن ما يلقى من أعلى المنابر لا يترك من الأثر إلا بمقدار ما يسمح لأول ظرف ولأول فرصة تصادمه بنسيانه ومؤاتاة ما يناقضه ، لأن هؤلاء الخطباء يكتفون بإلقاء الفكرة وتعزيزها بحججهم اللفظية ، أما ظروف الغواية فتجر وراءها جنداً من الآيات التى تغرزها وتؤيدها . وتجر وراءها اللذائذ والشهوات والمثل الفاسد لابسة كلها براق ثوب الجمال والظرف والنعمة والمسرة ، أفترى تلك الحجج إلا متطايرة أمام هذه الدلائل الرقيقة ، وهلا تكفى النظرة الضاحكة والابتسامة البديعة والثغر الحلو ولفظه العذب لتنسى الشاب أبلغ الخطب وأطولها .

لذلك يرى روسو وجوب بقاء الأستاذ مع تلميذه ووجوب ملازمته إياه فى هذه السن ملازمة وثيقة ، على أنه ينقله هنا من مركز الأستاذية إلى مركز الصداقة ويجعله مع تلميذه بحيث يتباحثان ويتناقشان فى كل أمر من الأمور ، وهذه الصداقة وتلك الملازمة تضمن ابتعاد الشاب عن الأوساط السيئة وما تقدمه من مثل فاسد كما تضمن أن يظل على خلاق حسن .

كذلك من أغلاط الذين يريدون توجيه الشباب توجيهاً حكيماً يحميه مزالق الشهوة أن يبغضوا إليه الحب وأن يجعلوا مجرد التفكير فيه فى تلك السن جريمة حتى لكأنما كان الحب للعجائز ، « وهذه التعاليم المضلة التى يكذبها القلب لا تقنع أبداً . وترى الشاب تقوده فطرته الأمينة ليضحك سراً من هذه التعاليم التعسة وإن أبدى الموافقة عليها وينتظر الفرصة التى يعمل فيها على نقيضها ، وهم فى ذلك إنما يواجهون الطبيعة . أما أنا فأسلك سبيلاً يضاد سبيلهم ثم أصل حتماً إلى الغاية التى يريدون بلوغها . فلست أخشى أن أملق فيه العاطفة الرقيقة التى تملأ جوانحه وإنما أرسمها له كأبدع ما فى الحياة من صور السعادة لأنها هى كذلك القلوب لذة الحسن كنت قد كرهت إليه الفجور وجعلته حكيماً أن جعلته محباً .

« وإنما أقول للشاب : إن قلبك يحتاج إلى رفيقة فهلم نبحث عمن توافقه ، وقد لا يكون وجودها بالأمر اليسير ، فإن الفضل الصحيح نادر لكنا لن نتعجل

ولن نيأس ، فليس من شك فى وجود من توافق قلبك وسنجدها آخر الأمر أو نجد من تقرب منها » .

ويصف روسو لأميل من يحسبها أوفق من تصلح له ويدعوها صوفيا ويسعى وإياه للبحث عنها ، وفى خلال هذا البحث يذهب روسو بتلميذه إلى المجتمعات غير خاش عليه سوء أثرها أن صار بمنزلة تمكنه من الحكم عليها من غير اندماج فيها ، كما أنه وهو فى بدء الصبا يستطيع أن يعرف أخلاق أهلها ووسائل الأخذ والرد معهم وسبل التصرف فيما يعرض أمامه من أمورهم . ولو أنه غشى هذه المجتمعات صغيراً لتكونت فى نفسه عادات قد لا يكون هيناً عليه أن يتخلص بعد ذلك منها . وإنما خطر هذه المجتمعات ما تزينه للشهوات من خادع المظاهر ، لكن إشراف الأستاذ على تلميذه حصن يقيه هذا الخطر وضمان لبقاء سلطان العقل حاكماً كل سلطان سواه . وسلطان العقل يدعو الشباب فى هذه السن لملاحظة الناس ملاحظة دقيقة ، وليس أفتق للذهن ولا أدعى لدقة الملاحظة من الصالونات الجامعة .

« فإذا درس الناس وأخلاقهم فى المجتمع كما درسهم ودرس شهواتهم من قبل فى بطون التاريخ كانت أمامه مواضع للنظر فيما يستهوى القلب الإنسانى وفيما يصده ، وتلك فلسفة مبادئ الذوق ، وهى أليق الفلسفات به فى هذا الوقت من حياته .

« وتجارة ما بين الجنسين هى التى تجعل الذوق الحسن أوالقبيح يتشكل بصورة خاصة . ذلك بأن الذوق نتيجة لازمة للغاية التى ترمى هاته الجماعات لها ، لكن الذوق يفسد إذا تيسرت اللذة فابتذل الدلال ، وعندى أن هذا سبب من الأسباب الواضحة التى تبين لنا تعلق الذوق الحسن بالأخلاق الطيبة .

« وإنما يستشار النساء فى الأمور المادية التى يستطيع الحس الحكم عليها كذلك فإنما يستشار الرجال فى الأمور الأخلاقية المتعلقة بالعقل . ولو أن النساء كن ما يجب أن يكنَّه لاقتصرن من الأمور على ما كان من خصائصهن ثم لصح عندئذ حكمهن ، اما من يوم أقمن أنفسهن حكماً فى الأدب وأبحن لأنفسهن تقدير الكتب وأكثرن من تأليفها فقد فقدن كل علم وكل معرفة . وليكن المؤلفون الذين يستشيرون النساء العالمات فى أمر كتبهم على ثقة من سوء المشورة . وليكن الظرفاء الدين يستشيرونهن فى أمر زيهم على ثقة من سوء هندامهم » .

هذه المساءة الصغيرة التى وجهها روسو للنساء ليست إلا مقدمة لما سيكتبه فى القسم الأخير من كتاب التربية عنهن وليست إلا أثراً من اقتناعه السابق الذى عرضناه عند الكلام عن خطاب المناظر .

وسيرى القارئ فيما بعد أن صوفيا ستكون خلواً من كل ثوب للإدعاء لأنها ستكون صورة منمقة مجملة لتريزلفاسير .

* * *

ذهب روسو بتلميذه إلى باريس وطاف وإياه فى الصالونات ودرس وإياه أخلاق النساء والرجال وكل همهما من ذلك البحث عن صوفيا ، وقد استغرق ذلك زمناً كافياً لملاحظة الشاب ما لم يسبق إلى ملاحظته من أخلاق أهل زمانه وعوائدهم ، وهو لم يقابل صوفيا كل هذه الأثناء لأنها كما كان الأستاذ يعلم لم تكن مقيمة فى باريس وإنما أراد روسو أن يعرض صور المدنية على تلميذه المطواع ، وما ندرى كيف ضمن هذا الأستاذ ألا يتعلق قلب أميل بباريسية تقابله فى المجتمعات والصالونات قبل الوقت الذى حدده وقرره لمغادرة باريس إلى حيث تقيم صوفيا ، فإذا تعلق قلبه بباريسية رقيقة فما هى الوسيلة لخلاصه ، وهل يضمن روسو إذا هو انتزعه من ملاكه ليقذف به على الملاك الذى أعده له ألا ينقلب ما يريده من سعادته شقوة وتعساً .

لكن أميل ليس إلا رواية التربية ، وأشخاص الرواية هم من خلق خيال المؤلف ، ولخيال المؤلف أن يصرفهم على ما يشاء .

لذلك كره أميل باريس وعظمتها وضجتها وأخلاق نسائها ورجالها وذهب إلى الريف وقابل صوفيا وكان من حظهما أن تعلق قلبه بها كما تعلق به قلبها وأن أعانت الظروف على تيسير خطبة الفتاة له . ولما اتصل الحب بينهما لم ير روسو أن الوقت قد حان لزواجهما ولم ير أن دوره كمرب قد انتهى ، بل أخذ فتاه فطاف به بلاد العالم سنتين تباعاً تعلم الفتى فى أثنائهما لغتين أو ثلاثاً من اللغات الحية وجاس فيهما خلال الممالك المختلفة دارساً طباع أهلها واطلع فيهما على النظم الحكومية لمختلف الدول ، وظل خلالهما يكاتب صوفيا وتكاتبه : وما أكثر ما يضرم البعد من لاعج المحبة والشوق وما أشد ما تفعل المكاتبة فى نفس المغرمين .

هذه ملاحظة نقر عليها روسو ، فليس يبدو من محبوبك وهو بعيد عنك

إلا حبه ولا تحمل كتاباته إلا أطهر مافى نفسه وأحلاه ، فإذا جد بك الشوق له فانحدرت من مآقيك دمعة على القرطاس الذى يحمل إليه ملتهب شوقك وحار زفراتك رأيت روحك حلت فى نفسه كما حلت فى نفسك روحه فكنت إليه أكثر شوقاً وكان هو بك أكثر هياماً ووجداً . وكذلك تزيد الفرقة الحب ضراماً وتربط القلبين برابطة الهوى والغرام .

قال روسو : « ليست فكرة خلق الحب فى نفس أميل قبل سياحاته من مبتدعاتى ، وإليك الحادث الذى ألهمنى إياها .

« كنت فى البندقية أزور مربى شاب من الإنجليز . وكنا حول المدفأة اتقاء برد الشتاء ، وقد تناول المربى خطاباته من البريد وقرأها ثم تلا واحداً منها على تلميذه ، وإذ كان بالإنجليزية فلم أفهم منه شيئاً ، لكنى رأيت الفتى فى أثناء القراءة يمزق أكمام قميصه الجميلة ويرمى بها فى النار واحداً بعد الآخر ، وقد قام بهذا العمل بكل سكون جاهداً ألا يأخذ أحد منه باله ، فدفعنى عجبى لهذه الفعلة أن أحدق به ، فخلته متأثراً ، فانتظرت بالأستاذ حتى أتم تلاوته ، ثم أشرت إلى معصم تلميذه العارى وقلت : أفيمكن أن أعرف معنى هذا ؟

« فلما رأى الأستاذ ما حدث ضحك ثم قبّل تلميذه قبلة الرضا وشرح لى ما أردت بعد أن حصل على موافقة الشاب . قال :

« إن الأكمام التى مزقها المسيو جون إنما أهدته إياها من زمن قريب إحدى سيدات هذه المدينة . وقد تعلم أن خطبة المسيو جون عقدت فى بلده على فتاة يحبها ، وهى بهذا الحب وبأكثر منه جديرة ، والخطاب الذى تلوته هو من أم الفتاة . وسأترجم لك الموضوع الذى أدت تلاوته إلى ما رأيت من إتلاف :

« إن لوسى لا تترك أكمام لورد جون . وقد جاءت بالأمس مس بتى بولدهام وأمضت ساعة العصر معها وأرادت بكل ما فيها من قوة أن تعمل فيما تعمل لوسى فيه . ولما عرفت أن لوسى قامت مبكرة هذا الصباح فوق عادتها أردت أن أرى ما تصنع فوجدتها مشتغلة بنقض ما صنعته مس بتى بالأمس . ذلك بأنها لا تريد أن يكون فى هديتها غرزة واحدة من يد غير يدها » .

وإنى وإن وافقت روسو على هذه الملاحظة إلا أننى لست فى الحق أدرى إذا كان هذا الحب المتلهب بنار الفراق هو الحب الواجب لسعادة الزواج .

فقد ذكر روسو فى الهلويز أن الحب ليس عماد السعادة فى الزواج ، كذلك فإن الفرقة والتخاطب يوحيان إلى كل من المحبين بما عليه صاحبه من حسن . فإذا رأى كل صاحبه بعد ذلك ورأى الحسن تخالطه صفات لم تكن بادية كان ثمت خطر الانقلاب . وما أتعس محبين استحال حبهما إلى نقيضه . أفلا يحسن إذن أن يكون التعارف بينهما تاماً وأن يطلع كل على كل صور نفس صاحبه وحالاته حتى يكونا فيما بعد بمأمن من كل طارئ .

كنت مسافراً من لوسرن بسويسرا إلى إيطاليا ، وكان معى فى ديوان سكة الحديد شاب وفتاة فى مقتبل العمر . وقد تحدثنا وسألت الشاب عما إذا كان هو وعروسه يقضيان شهر العسل . فابتسم وقال إن من عاداتهم فى أمريكا أن يذهب الشاب ومخطوبته فى سياحة طويلة قبل الزواج ثم يبتان بعدها فى الأمر . وهم يسمون هذه السياحة سياحة التجربة . لأن السفر خير ما يدل على أخلاق الشخص وخير ما ينبئ عن ميوله . فإذا اتفق الخطيبان بعد سياحتهما اقترنا معاً وضمنا زواجاً سعيداً تزيده ذكرى تلك السياحة الطويلة سعادة بما تبعثه إلى نفسيهما من صور وخيالات وأحلام وتأثرات مشتركة . وإلا انبتت الخطبة على خير ما يكون الوئام . وقد قصصت هذه الحكاية على بعض من عرفت من الفرنسيين فى باريس . فوافق على الفكرة وذكر أن سياحة شهر العسل بعد عقد الزواج كثيراً ماتبين عن أخلاق غير محمودة عند أحد الزوجين ، وكثيراً ماتكون بدء النزاع فى حياة الزوجية . ولست أدرى إذا كان روسو قد وقف على هذه العادة الأمريكية ، ولكننى على يقين من أنه لو وقف عليها لما أقرها ، لا لتطرفها فى الحرية ، بل لأنها تعطى المرأة حق الحكم على الرجل . وهذا ما لا يرضاه لجنس أول واجباته عنده طاعة الرجل والخضوع له .

ولما انقضى الوقت الذى رآه روسو لازماً لسياحات أميل عاد به إلى صوفيا . واقترن الشاب بالفتاة . ومع ذلك ظل الأستاذ على مقربة منهما . « حتى إذا كان بعد أشهر دخل أميل إلى غرفتى وقال وهو يقبلنى : هنئ فتاك يا أستاذ ، إنه يأمل التمتع بشرف الأبوة عما قريب ، ألا ما أكثر ما سيلقى على عاتقنا من صنوف العناية وما أشد احتياجنا إليك . وما أريد علم الله أن أدعك تقوم بتربية الابن بعد ما قمت بتربية أبيه . فما أريد أن يقوم غيرى بهذا الواجب الحلو المقدس حتى لو أتيح لى أن أحسن الاختيار له بمقدار ما حسن الاختيار لى . لكن كن أنت

أستاذ الأساتذة الشبان . فانصح إلينا ووجهنا وسنكون طوع يدك . إننى سأبقى فى حاجة إليك ما عشت . وأنا اليوم أشد ما أكون لك احتياجاً أن ابتدأت أعمال الرجولة . أما أنت ، وقد قمت بما عليك ، فأرشدنى لأسير على سننك ، واسترح فقد حان الوقت الذى يحق لك فيه أن تستريح » .

هذه العبارة هى ختام كتاب التربية . وقد آثرنا ألا نذكر من الكتاب الخامس الذى أفرده روسو لتربية الفتاة إلا ما خص أميل وسنطرح أمام نظر القارئ بعض ملاحظات على طريقة التربية التى اتبعها روسو مع فتاه ثم نعود إلى تربية الفتاة ورأى روسو فيها .

* * *

بعد ثمانى سنوات من نشر أميل كتب أحد المهذبين إلى روسو يقول له إنه اتبع طريقته فى التربية مع تلميذ له فرد عليه روسو يقول : « لئن صح أنك أخذت بالخطة التى جاهدت لرسمها فى أميل فما أشد إعجابى بهمتك فإن عظيم ذكائك يدلك على أن هذه الطريقة يجب الأخذ بها كلها أو تركها كلها ، وإن خيراً ألف مرة أن تأخذ بطرائق التربية المعروفة فتصوغ فرداً كالأفراد من أن تأخذ ببعض هذه الطريقة فلا تصوغ إلا رجلاً خائباً . . وأنت من غير شك لا تجهل المجهود العظيم الذى تكفلت به . فأنت مدى عشر سنوات صفر بالنسبة لنفسك ، مسلم كلك بكل مواهبك إلى تلميذك . فالعناية والصبر والثبات هى الصفات الثلاث التى لا تستطيع أن تتخلى لحظة عنها من غير أن تتعرض لخطر إضاعة مجهودك كله إضاعة تامة . ولحظة قلق أو إهمال أونسيان كافية لتنزع منك ثمرة عملك مدى عشر سنوات ثم لا يكون لك أن تسترد ما فقدته ولو أجهدت نفسك عشر سنوات أخرى . ولعمرى لو أن شيئاً استحق صفة البطولة والعظمة بين أعمال الرجال فذلك نجاح مثل ما أقدمت عليه . ذلك بأن قيمة النجاح تتناسب دائماً مع ما أنفق للحصول عليها من مواهب وفضائل . . » .

قال فاجيه : « لن يستطيع الإنسان أن يعبر بأحسن من هذا عن أن الطريقة صناعية بحتة لا تقوم إلا كما تقوم قصور الوهم وهى من سهولة الفساد بحيث لا يمكن اعتبارها إلا تصوراً جنونياً ورواية وهمية » .

ما نشك فى أن هذا النقد صحيح فى مجموعه . فأين نعثر على هذا المهذب

المتفانى فى إخلاصه ، والبالغ من الفضيلة والطهارة أقصى الحدود ، حتى ليقصر جهوده عشر سنوات بل عشرين سنة متوالية على تربية طفل واحد . وهل يستطيع هذا الأستاذ مهما بلغ من حذقه ومهارته أن يغير من طبع الطفل أو أن يحجب الموجودات عن أن تؤثر فيه على غير ما تؤثر فى سواه وعلى غير ما تؤثر فى الأستاذ نفسه . ألم نر أخوين شقيقين بل ألم نر توأمين أحياناً يسلكان فى التربية والتعليم سبيلا واحدة ثم تختلف نتيجة التربية عند أحدهما عن نتيجتها عند الآخر ، فكيف بك تنتظر النتيجة التى قدرها روسو لكل تلاميذ روسو مهما اختلفت وراثتهم وطبائعهم وميولهم . كيف تنتج عند النبيه ما تنتج عند البليد وكيف تنتج عند العصبى ما تنتج عند اللمفاوى . ما هو هذا الامتياز السحرى الذى يجعلها تسوى بين طبائع البشر وقد أبدعت الطبيعة بينها من صور الاختلاف والتفاوت ما يقصر العقل عن تصور مداه .

ما نشك كذلك فى أن طريقة روسو تحوى شتى المتناقضات . فهو يزعم أنه يخلى بين الطفل والطبيعة مدى سنى التربية السلبية . وقد رأينا أن ما يلجأ إليه من الوسائل الصناعية يجعل هذه التخلية وهما من الأوهام كما يجعل تربيته أبعد عن الطبيعة من كل تربية سواها . وما ندرى بعد ذلك سبباً لفضل وسيلته على غيرها من الوسائل المتبعة عند الطبقات الراقية فى البلاد المتمدينة وبخاصة فى إنجلترا ؟ ثم لا ندرى بعد ذلك ما الجديد فيما كتبه ولم يسبقه إليه مونتنى أو الفيلسوف الإنجليزى لوك (١) إلا أن تكون صيغة الكتابة وتعاليم قسيس السافوا وإلا قلب بعض الأفكار قلباً روائياً مدهشاً .

قال فيلمن : « لن ينكر أحد على روسو بلاغته ودقة تحقيقاته عن الطفولة الأولى . لكنه كان أقل نجاحاً فى كلامه عما بعد الطفولة . وهو برغم تكراره : انظر كيف يفوق تلميذى تلاميذكم — لا يبين للقارئ ما بين نتيجته والوسائل التى أدت إليها من صلة . صحيح أن ما يعود روسو عليه تلميذه من كثرة الرياضة بالغ فى الحسن . لكنا لا نرى بعد ذلك كيف حصل التلميذ على ما يدعيه روسو له من صفات وأخلاق . والحق أن المؤلف ينقض الطرائق المتعارفة بأحسن مما يثبت

---

(١) راجع كتاب التربية لسبنسر وسر تقدم الإنجليز السكسونيين لدمولان .

به صلاحية طريقته . فهل ترى هذه الطريقة مؤدية حتماً بالتلميذ ليكتشف العلم بدل أن يتعلمه . هذه فكرة ليست مفيدة وهى غير ممكنة . وأنت لا تفتأ ترى الأستاذ يوسوس إلى تلميذه بالدرس بعد ما يهيؤه له . فمن نزهة يضل فيها الطفل لعدم معرفته وجهة السير إلى حديث البستانى ألبير عن التملك » .

لست أرى حقًّا كيف حصل تلميذ روسو على ما يدعيه أستاذه من صفات له وأخلاق . بل لقد نكون فى حل من الشك فى نجاح طريقة روسو فى غير موضع من مواضعها . فكيف يكون التلميذ المسلوب الإرادة إلى الخامسة والعشرين من عمره ذا إرادة قوية بعد هذه السن . وكيف يعشق الحرية من بقى مقيداً بمهذبه من أول أيامه لا يرى إلا بعينه ولا يسمع إلا بأذنه ولا يفكر إلا بعقله ولا يتصور إلا بخياله . ألا تراه متى خرج بعد ذلك إلى ميدان الحياة وفاجأته شدائدها وغواياتها كان أبعد إيغالا فى الضلال عمن سواه . فإذا هو اتصل بأحد أولئك العصاميين الذين عصرتهم الكوارث من نعومة أظفارهم فخرجوا من بين مخالبها صلباً عودهم قوية شكيمتهم استسلم له وألقى إليه مقاليد قياده وضل فى الحياة سعيه وكان من الخاسرين .

شرع روسو بعد نشر الأميل فى تأليف رواية أسماها (أميل وصوفيا أو المعتزلين) ولم يتمها . على أن ما ظهر منها يدل على شك منه كبير فى تفوق طريقته فى التربية على الطرائق المتبعة . فقد تزوج أميل من صوفيا وأولدها غلاماً وعاشا زمناً فى الريف بين مناظر الطبيعة الساذجة ، ثم انتقلا إلى باريس وخالطا جمعياتها وامتزجا بأهلها . وبعد زمن أبت الزوج على زوجها أن يقربها ، وظلت كذلك شهوراً تقلب هو فيها على أشواك الحيرة . ثم ألح على زوجته فى المسألة فقالت له : « تنح يا أميل عنى فقد نجس سواك فراشك وتركنى حاملا . وما كنت لتقربنى بعد ذلك ما عشت . . ففر أميل مثقلا باليأس وظل فى يأسه زمناً حتى إذا ذكر دروس أستاذه طابت نفسه والتمس للزانية عذراً ، وأعجب منها بما بقى لها من فضيلة الصراحة بعد الكبوة فغفر لها ، ولكنه أخذ فتاه وارتحل حتى نزل عند نجار اشتغل معه آملا تخفيف آلامه بكد نفسه وإجهاد قواه . لكن الأم لم تقدر على مفارقة ابنها . فسارت حتى إذا بلغت باب المصنع نادت بصوت مستعبر وهى تنظر إلى ابنها الثانى : « كلا إنه لن يسلبك أمك . فتعال نبتعد فليس لنا هنا مستقر » .

عند ذلك ترك أميل لها غلامه وهاجر إلى الجزائر فأخذه الوالى عبدا ثم أدناه منه وكرم مجلسه .

قال جول لمتر : « هنا تقف الرواية فنسائل أنفسنا : ماذا أفاد أميل من تربيته الخاصة إذا كان قد عاش عيش سواه بعد ما جاء إلى باريس » . وإنما ينكر روسو غرائب طريقته بعد ما وضعها كما أنكر من قبل غرائب خطابيه عن العلوم وعن التفاوت ، وهو يخفف من الحدة التى ظهرت فى كتابه ضد طرائق التربية المتعارفة كما خفف من حدته ضد المناظر بعد إذ نشر خطابه لدالمبير عن المناظر .

ولم يكن لروسو فى الحقيقة بد من هذا الإنكار والتخفيف فقد كان يعلو غلواً غير معقول أول ما تختمر فكرة فى رأسه . فإذا واجهه الناس بمعقولهم ومعروفهم ارتبك ولم ينجه من ريبكته إلا نظام التقهقر أبدع فيه وبرع حتى كان الناس يظنونه فى تقهقره منتصراً .

لكنه كان يترك بعض الأفكار الغريبة العزيزة عليه تمر من غير أن يمسها فى أثناء تقهقره بسوء . ففكرته فى أن يبدع الطفل العلم من غير أن يتعلمه ليست أقل أفكاره غرابة ، وهو مع ذلك بها مدله وعليها حفيظ . وكأنما يريد بكل إنسان أن يبدأ جهود القرون الماضية ليكشف ما كشف الجدود من أسرار الوجود . وبديهى أن هذه الأسرار لم تسلم مفاتحها إلا بعد أن أخذت عنوة وبعد ما تجندل تحت أسوارها ألوف الشعراء والفلاسفة والكتاب والعلماء المنقبين . فكيف يذرها روسو تغلق أبوابها من جديد دون فتاه قانعاً بأن يوسوس له منها بشىء من صور النجوم وظاهرات الطبيعة .

لا يريد روسو أن يجيب عن هذا الاعتراض إلا بما أجاب على ما وجه لخطاب العلوم والفنون من الاعتراضات . وهو بعد ما كتب أميل لا يزال يرى أن السعادة الخالدة فى أحضان الطبيعة لا تحوجها العلوم بل هى تقص من أطرافها . وإذا لم يكن من هذه العلوم بد فقليلها يكفى ، أما الفنون فلا .

وأغرب الأفكار العزيزة على روسو فكرته الأساسية . فهو يزعم أن الإنسان طيب بطبعه . وهو يرتب على هذه الطيبة كل نظامه فى التربية . يكفى عنده ألا تدع موضعاً ينفذ منه الشر إلى نفس الطفل لتنجو به ولتكون قد كونت رجلا طيباً .

قال قاسم أمين : « يولد الإنسان شريراً خبيثاً قاسياً محتالا كذوباً . الولد الصغير لا يعرف إلا نفسه ولا يرى إلا نفسه ولا يحب إلا نفسه ولا يألم إلا من نفسه وفيه أثرة هائلة لا حد لها . هذه العيوب تنمو مع الطفل وتبقى فيه حتى يصل إلى سن الرجال فيتعلم كيف يخفيها ، يحسن ظاهره ويستر باطنه . أعظم ما تنتجه التربية الجيدة إذا استمرت بلا انقطاع هو أن تقطع من النفس فروع هذه الشجرة الخبيثة ولكنها لا تستطيع أن تقلع جذورها » .

استغرق النظر فيما إذا كان الإنسان طيباً بطبعه أو خبيثاً بطبعه جهوداً لا تقل عن الجهود التى أنفقت فى بحث الخير والشر ومصدرهما ومآلهما . وأثار بحث المسألة من الجدل ما أثار بحث غيرها من المطلقات التجريدية الأخرى . وعندنا أن كل هذا البحث والجدل عقيم . وليس الإنسان طيباً بطبعه وهو ليس خبيثاً بطبعه . وإنما هو ذرة فى دائرة الوجود قضى عليها بالحياة الإنسانية ولا تعلم لهذا القضاء سبباً ولا تفهم للحياة غاية ولا تدرك للوجود غرضاً . وهى تعيش حتماً فى انتظام مع غيرها من ذرات الوجود . وكلما زاد انتظامها طابت حياتها . ولذلك كنا نعتبر خير حالات الحياة وأسعدها أكثرها مع حياة مجموع الوجود انتظاماً وأكثرها لها ملاءمة . . صحيح أنا لم نعرف بعد ، وقد لا نعرف أبداً ، ما يجب علينا لكمال الانتظام حتى نبلغ كمال السعادة . ونحن لا نزال ندأب وراء هذه الغاية بالاستفادة مما يكشف العلم عن صلات الأشياء بعضها ببعض وعن صلتنا بالأشياء وباستيحاء إلهامنا الغريزى الناشئ من شعورنا بأثر الأشياء فينا وأثرنا فيها شعوراً لما نعرف مظاهره وأسبابه . فإذا أمكن حصول هذا الانتظام ، وقدر أنه حصل ، يومئذ نكون قد بلغنا غاية التقدم ويومئذ تسترد الإنسانية الفردوس المفقود .

لكنا ولما نصل من التقدم لشىء إلا أن يكون سراباً لا نعرف له وجوداً فإن الخير والشر والحسن والقبح والطيبة والخبث وما إليها من أشباهها لا تزال فى حيز المطلقات التجريدية . كل ما عندنا من علم بها ليس إلا حدساً وضعناه على قدر معارفنا الناقصة الضيقة الدائرة ووضعناه بمقدار اقتضته ضرورات الحياة وظروف العيش . قد يكون هذا المقدار النسبى قريباً من الحقيقة المطلقة – إن كان للحقيقة المطلقة وجود – وقد يكون بعيداً عنها ، بل على النقيض منها . ذلك أمر لا نعلمه ولا يستطيع أحد أن يقطع فيه برأى .

من ثم كان بناء التربية على تقدير الطبة الطبيعية أو الخبث الطبيعى بناء واهن الأساس . وإنما التربية تهيئة الناشئ للعيش فى الوسط المحيط به عيشاً يقربه من فكرتنا فى السعادة قدر المستطاع . ولما كانت هذه الفكرة مستفادة من العلم بالوجود الخارجى علماً قائماً على الملاحظة والاستقصاء ، ومن الإلهام النفسانى فيما لم يحكمه العلم بعد ، فوجب أن نطرح الصور المادية التى كشفت قواعد العلم عنها للإنسانية أمام حس الطفل كى تدخل فى دائرة معارفة وكى يكون إلهامه النفسانى أقرب إلى مظنة الصواب فيكون هو أقرب إلى السعادة .

سهل بعد ذلك أن يشعر الطفل بأن كثيراً مما يقع تحت حسه إنما كان من عمل الإنسان . وأن مثل هذا الكثير مثل الشجرة الكبيرة يتمتع هو بثمرها وإن كان فضل غرسها لغيره . وسهل كذلك أن يتصور ما أنفق لتحصيل هذه الغاية من الجهود على ممر الأجيال . فإذا هو شعر بذلك وتصوره ، قدر ما للإنسانية عليه من فضل ، وشعر بأنه مدين للماضى بسعادته وطمأنينته فى الحاضر . ورأى أن أداء هذا الدين الواجب الأداء إنما يكون بمواصلة جهود الماضى لتقريب الإنسانية من تمام الانتظام فى مجموع العوالم كى تتحقق غايتها وتتم لها السعادة .

من هنا تنشأ فكرة الواجب . وليس الواجب إلا أداء ما تراه ديناً عليك . وقد ذكر أميل فاجيه أن روسو لم يلهم فتاه هذه الفكرة ولم يرب فى نفسه إرادة الوفاء . وقد يكون هذا صحيحاً . قد يكون صحيحاً أن روسو لم يقو إرادة فتاه إطلاقا وإنه لم يشعره بما للماضى عليه من فضل ودين واجب الوفاء . لكن لروسو عذره . فهو يعتبر جهود الماضى جهوداً ضالة أفسدت الإنسانية ونشرت الشقاء ومكنت للتعس . وهو يرى فى السكون إلى الطبيعة والركون إلى الطمأنينة الخالدة وسيلة السعادة . وهو يرى أن تقوم الفضيلة على أساس من الإشفاق والرحمة بالإنسانية المعذبة الدائمة الأنين .

قال : إنما يتكون الجنس الإنسانى من سواد الناس . أما ما ليس سواداً فهو من القلة بما لا يحرك العناية لحسابه . . ولو أن الغنى كان أكثر من الفقير شقوة وتعساً لما دعا ذلك للإشفاق عليه . فإنما تعسه من عمله وسعادته فى يده . لكن شقوة البائس من عمل الأشياء ومن قسوة الحظ الذى يثقل كاهله . ولا سبيل لنزع إحساسه المادى بالتعب والهمود والجوع . ولا تجدى الحكمة ولا يجدى الذكاء

لإقالته من هموم مركزه . . احترم جنسك واذكر أن أساس تكوينه مجاميع السواد وأنك إذا نزعت منه الملوك والفلاسفة فلن يكون لانتزاعهم أثر ولن يتأثر سير الوجود . وبالجملة علم فتاك حب الناس جميعاً وألا يكون من طبقاتهم فى واحدة منها بل فيها جميعاً . وحدثه عن النوع الإنسانى بمحبة وإشفاق . وإياك ولفظ التحقير . فما كان للإنسان أن يثلم شرف الإنسان » .

ظاهر هنا أن روسو جعل الرحمة والمحبة أساس الخلق . وظاهر أنه أوحى للأستاذ بأن يلهمها فتاه على أنها بعض مظاهر الوجود الطبيعية ، لا على أنها قواعد تواضع الناس عليها ، وذلك لكى تنغرس فى نفسه كما تنغرس صور الموجودات المادية التى تقع تحت حسه . ومتى انغرست أنتجت بعد ذلك كل ثمرها حتماً . ومن ثمارها فكرة الواجب على معنى خاص . فإذا لاحظنا مع فاجيه أن فكرة الواجب طبيعية فى الإنسان كان هذا المعنى الخاص توجيهاً لها إلى وجهة قد لا تتفق مع رأى نيتشه Neitche من وجوب تطبيق مبدأ تنازع البقاء على أقسى صورة فى الجماعة الإنسانية ، ولكنها من غير شك تتفق مع النظرية المسيحية نظرية التفانى والإخاء . وما كان لنا مع ما نعلم من شدة إخلاص روسو للمسيحية برغم نفيه النبوة والرسالة أن نطالبه بالأخذ بنظرية غير نظريتها .

وما دام روسو قد أقام أساس الخلق على الرحمة والمحبة فمن الخطأ كذلك رميه بأنه أراد لطفله أن يبقى جاهلا قواعد الخلق حتى الثامنة عشرة من عمره . وهو إنما أراد أن يأخذ الطفل بهذه الظواهر على أنها وسائل الحياة العملية من غير اضطرار للمقاربة بينها ومقارنتها واستنباط القواعد منها حتى لا يكره ذهنه الضعيف على النظر فيما لا يطيق هضمه . فإن الذهن كسائر الأعضاء وكالمعدة إذا أهمل فسد ، فإذا أعطى بمقدار حاجته قوى وطلب المزيد . أما إن أرهقته أتلفته التخمة وقلَّ أن يعود إلى شىء من الصلاح . ومقدار حاجة ذهن الناشئ مشاهدة الأشياء وظواهرها ، فإذا هو أحاط بكل منها منفرداً جد فى مقارنتها . فإذا أبدت له المقارنة أوجه الشبه وصور الخلاف بينها فكر فى الاستفادة من هذه الوجوه والصور لوضع قواعد يصدر عنها . وقد لا تستقل هذه العملية الذهنية عن سائرها إبان التدرج من الصغر إلى الشباب . لكنها على كل حال تحتاج إلى المعونة على هذا الترتيب . ففرض المشاهدات ، ثم تقريب المتوافق والمتخالف ، وأخيراً الإعانة

على استنباط القواعد . وهذا ما فعله روسو حين وضع فكرة التربية السلبية ثم الإلهام ثم الحوار والجدل .

وليس يصح للشاب بحث نظام قواعد السير فى الحياة إلا فى الحال الأخيرة من حالات التربية . ذلك بأنها نتائج المشاهدات والمقارنات استنبطها الذهن بعد بحث وتمحيص ، والبحث والتمحيص لا يكونان إلا بعد أن تكمل للذهن قوته . ولو أنك وضعت أمام الذهن هذه القواعد على إطلاقها ولما يتم نضجه إذن لكنت كمن يثقل معدة الرضيع بالغذاء الدسم يريد به أن يسرع إلى النمو فلا يكون من وراء عمله إلا تخمة الطفل تخمة قد تودى بحياته . وما نشك فى أن البله العام الذى يصيب أكثر طبقات الإنسانية إنما سببه ما ألقى على أذهان أهلها ولا تزال فجة ضعيفة من أحمال لا طاقة لها بها . لذلك أصابها الهزال برغم استمرار نمو الجسم وصرت ترى رءوساً كأنها رءوس الرجال تعمرها أذهان لا تزيد قوتها على أذهان الأطفال .

وهذا هو ما حدا بروسو ليترك الفلسفة والدين وقواعد الخلق جانباً لا يلقى بشىء منها إلى فتاة قبل السادسة أو الثامنة عشرة من العمر . تلك كلها مضاربات نظرية اقتضى الوصول إليها جهاد أصحاب الأذهان الناضجة والنبوغ العقلى مدى أجيال كثيرة . وهم لم يصلوا إليها إلا بعد أن كشفوا من دقائق مخبآت الأشياء عما لا يقع تحت حس الطفل . فإلقاء هذه النظريات والدقائق إليه يفسد ذهنه بل يتلفه .

ولما كانت حاجة الطفل لمشاهدة الأشياء هى الحاجة الماسة فى المدة الأولى من طفولته ، ثم لما كانت حاجته لمقارنتها هى الحاجة الماسة بعد ذلك مباشرة ، فإن إضاعة وقت الطفل فى قراءة الكتب صرف له عما يعوزه . إنما تحتوى الكتب صور الأشياء لا حقائقها . وتحتوى منها وجهاً خاصاً قد يكون أقل وجوهها استلفاتاً لنظر الطفل . وفى قصر الطفل على الصور دون الحقائق خطر كبير . فإن مشاهدة الأشياء على حقيقتها تبعث فى النفس نشاطاً لاستجلاء هذه الحقيقة . كما أن المقام بين الصور يجعل الطفل ينمو خيالياً محباً للأوهام متطلعاً إلى ما يرسمه له ذهنه على الورق لا إلى ما تمليه عليه الموجودات من صور الواقع . والحياة واقع لا خيال وحقيقة لا وهم فالتعلق بالخيال والوهم ليس يصلح للحياة .

لكن ترك الطفل يشاهد الأشياء زماناً ثم يقارنها زمناً آخر ثم يستنبط القواعد

والأحكام منها بعد أن تتكون عنده ملكة التفكير يحتاج إلى وقت طويل قد لا يتسنى للكثرة المطلقة من الناس الذين يضطرون لكسب حياتهم . هذا اعتراض يوجه إلى مذهب روسو . وهو اعتراض وجيه لا على التربية كمذهب ولكن على التربية كوسيلة لكسب العيش . قال فاجيه : « إذا كان مرمى التربية سرعة كسب وسيلة للعيش كما هو الحال حتماً وضرورة لأغلبيتنا العظمى ، فيجب أن تكون التربية عملية أو إن شئت مادية إلى درجة أكبر . وليس معنى ذلك أن هذه التربية العملية هى التربية الصحيحة أو التربية الحسنة . تلك تربية سيئة بل هى ليست تربية إطلاقاً . إنما هى مران يخلق العامل المتقن ولا يجعل الطفل رجلا . وما دامت الحالة الاستثنائية الطيبة التى اختارها روسو تجعل الطفل غير محتاج لكسب العيش فيكفى أن يحتاط له بتعليمه حرفة يدوية يستطيع الكسب من طريقها إذا ساء حظه . أما ما خلا ذلك فتربية عامة كلها تثقيف الذهن ورياضة العقل ونماء حسن التقدير ورفعة القلب – وأن يكون وسيلة ذلك : الحديث الطويل الجد الدقيق مدى عشرين سنة مع حكيم تعينه كتب قليلة . وتلك هى التربية الصحيحة ، فليس العلم غرضها وإنما غرضها تفتق الذكاء . يسير عليك بعد ذلك أن تحصِّل ما تحتاج إليه أو تشتهيه من علم وأن تحصله سريعاً . صحيح أن هذه التربية لا تؤهلنا لنضال العيش . لكن أصحاب هذا النضال لم يكونوا موضع تفكير روسو »[1] .

ظاهر من كل ما سبق أن مذهب روسو فى التربية مذهب غير ممكن تطبيقه . وظاهر أن فى كتاب التربية آراء تستحق النقد وأخرى خاطئة الخطأ كله . وظاهر كذلك أن مجموع فكرة روسو فى التربية بديع عظيم وأن الكتاب يحتوى من الأفكار ما جعل المسيو مارتن يكتب عنه فيقول : « برغم ما أثارت بعض أجزاء أميل من اعتراضات عليه فالكتاب يكاد يكون أعمق بحث وجد فى لغتنا وفى غيرها من الكتب الحديثة عن الطبيعة الإنسانية . وهو قطعاً أكثر الكتب دفعاً للتفكير فيما لا يكون تفكير المؤلف فيه صواباً . وإنك لفى حل من أن تقول غير مبالغ إن هذا الكتاب كان سفين سلام ألقى بها القدر على أمواج مذاهب التشكك والمادية وإنه جمع بين دفتيه كل العواطف والمبادئ الأساسية للحياة الأخلاقية التى

(١) راجع أميل فاجية « القرن الثامن عشر » ص ٣٦٨ – ٣٦٩ .

كانت على شفا الهاوية . وليتصور الإنسان القرن الثامن عشر خلواً من روسو ثم ليسائل جاداً مخلصاً أيان كان ينتهى سير العقل الإنسانى » .

هذا المقام الكبير الذى اعترف به الكتاب جميعاً لكتاب روسو وتلك الأفكار الجمة التى قررت حقوق الطفل كما قرر العقد الاجتماعى حقوق الإنسان هو الذى أدى بنا لنفيض فى عرض الكتاب كل هذه الإفاضة . ولو أن روسو كان دقيقاً فى شأن المرأة دقته فى شأن الرجل كريماً معها كرمه مع أمثاله لعرضنا قسم أميل الأخير مع ما سبق عرضه . لكن روسو كان خصماً لحرية النساء لأنه كان شديد الولع بهن . وخصومته تدعونا لأن نفرد الفصل الآتى للكلام عن الكتاب الخامس من التربية (صوفيا أو المرأة) .

obeikandl.com

٣

استأثر الرجال كبراً وغروراً بحق الحكم على كل شيء . والمرأة بعض الأشياء التى استخضعوها لحكمهم . فما لها من حق وما عليها من واجب رهن أمرهم وطوع إشارتهم . وقد بالغوا فى ذلك حتى بلغوا فى بعض العصور أن جعلوا حياتها وحريتها بيد بنيها بل بيد مواليها . وكانوا ولا يزالون فى بعض الأحيان يدفنونها حية مع زوجها الميت . وهى لم تصل بعد إلى التمتع بكل الحقوق التى يتمتع بها الرجل قانوناً وفعلا فى أى بلد من البلاد . ومن يدرى إذا كانت ستصل إلى هذا المقام يوماً من الأيام .

لم هذا ؟ لأن الرجل قوى الساعد والمرأة ضعيفته . وللقوة بحكم الطبيعة حق لا يمكن إنكاره . واستعمال حق القوة يتكيف حسب الأزمنة والأمكنة بصور مختلفة : فحيث الرجل معرض لفتك الأقوى تراه يفتك بالأضعف . وحيث تحول حيلة الرجل دون فتك غيره به تراه يجعل للحيلة حقًّا يقف دون الفتك . ولو ملكت المرأة يوماً من وسائل الحيلة ما يعجز الرجل عن كشفه لخضع الرجل لسلطانها ولأقر لها بحق التحكم فيه .

لكن الرجل فى حاجة إلى المرأة . لذلك كان يرعى مع استبداده بها حرمات لها غير قليلة . وكان يرعى جانب الرأفة واللطف ليصل منها إلى غاياته . كذلك فالمرأة أم الرجل وأخته وزوجه ومحبوبته والرجل أبو المرأة وأخوها وزوجها وحبيبها . وهذه صلات تمنع عليه أن يقسو بها إلى الحد الذى يقسو عنده القوى بخصمه الضعيف ، وتقضى عليه حتماً أن يرتب علاقاته معها ترتيباً يضمن لكل منهما سعادة متبادلة من غير أن ينزل القوى عن عرش قوته .

وقد كانت المرأة ولا تزال ترى من الرجال هذا الاستئثار بالحكم ، وكانت ولا تزال تسخر منهم لما هم فيه من باطل الغرور وما هم عليه من كاذب الكبرياء . وهى تسخر منهم لأنها تشعر من جانبها بأن قوتها أبعد من قوتهم أثراً وإن كانت أقل ظهوراً . قوتهم كقوة الحيوان الضخم يجر العربة وهو كلما ثقل حملها اشتد

بنفسه اعتزازاً وإن كان أكثر أمام عربته اهتزازاً . وقوتها كقوة الكهرباء لا تقع عليها العين وهى تهز العوالم وتدك الرواسى وتزعج الآلهة .

ولم يفت الرجال على عظيم تبلدهم أن يشعروا بهذه القوة . وقد خيل إليهم لما أرادوا التخلص منها أن القمع والقسر يخفف من آثارها ، فألزموا المرأة عقر دارها ومنعوها من الاختلاط بالعالم مخافة أن يزيد هذا الاختلاط فى سلطانها ، وحبسوا عنها ماكشفوا من قوى الوجود لتبقى ضعيفة بجهلها . فلم يغن ذلك عما أرادوا شيئاً . إذ رضيت المرأة بالنصيب الذى قدروه لها مقابل أن استخضعتهم لحاجاتها واستذلتهم لشهواتها وجعلت منهم مطى رغائبها وأهوائها . وكذلك كان الفوز فى هذا النزال القديم الخالد بين المتحابين المتنافسين لسلطان المرأة الرقيق .

على أن شيئاً من النور قد بدأ يدخل إلى عقول الرجال المتبلدة ، فبدءوا يشعرون بأنهم يزيدون فى سلطانهم على المرأة إذا هم تركوها تصادم الوجود وتحتال لنفسها على اتقاء قسوة صدماته . ولما كانت المرأة هى ابنة الرجل قبل أن تكون امرأة ذات وجود مستقل ، فقد فكروا فى إعدادها لهذا الصدام كما يعد الرجل ، حتى إذا خرجت إلى الصدام فلم تكف نظراتها وبسماتها ودلالها ورقتها لتلين من جلمود قلب الوجود ورأت ألا مفر من الاستعانة بالرجل الغليظ ليشدد من لينها ويقوى من ضعفها أدركت ما له عليها من يد وجميل وراعت القصد فيما كانت تعنته من قبل فيه من حاجاتها وشهواتها ورغائبها وأهوائها .

وبين هذين الموقفين – موقف القسر فى عقر الدار وموقف جلاد الوجود – كانت المرأة ولا تزال تتردد . .

وأشد الرجال عسفاً بالنساء وأكثرهم حرصاً على إخضاعهن هم أشدهم تعلقاً بهن وأحناهم ضلوعاً عليهن . هؤلاء العشاق للجنس يرون المرأة كالزهرة إن عرضتها للافح الهجير أو قارص الزمهرير ذبلت وزال جمالها . وهم يرونها كالغزال إن قوى أستأسد فزال عنه ما جعل لهم عليه السلطان . وهم يشعرون توهماً ما لها من ذكاء وحيلة فيخشون أن تنقلب الحيلة سياسة توجه بها المرأة الرجل حيث تشاء . وهم يرون لذلك إمكان زوال ملكهم وهم أحرص من أن يرضوا زواله .

وقد رأى القارئ مبلغ تعلق روسو بالنساء وهيامه بهن هياماً دفعه إلى أعمال

الجنون فى شبيبته وفضح مستور حياته فى رجولته . فلا بدع إذن أن يكون رأيه فى تربية النساء فألا فاضحاً فى جنونه . هذا مع الاعتراف بأن للجنون منطقاً لا يقل عن منطق العقل دقة ، وبأن فى اندفاعات الجنون إلهامات حق لا يصل إليها منطق العقلاء .

يقول أميل فاجيه رداً على اعتراض الذين يذهبون إلى عدم جواز تعليم المرأة إلى حد تتساوى عنده مع الرجل أو تفوقه فيه : (لن يكون تعليمها كذلك شراً بل يكون هو عين الحكمة . فإنما يكفى الرجل أن يتقن حرفة للكسب وأن يحسن أداءها وأن يعمل على حد قول الأمريكيين – لكسب المال لامرأته : أما المرأة فمدبرة للمنزل ، عليها واجب ألا تسرف فى المال . وذلك أشق كثيراً من كسب المال . وهى زوج يجب عليها ألا تضايق زوجها وأن تعمل الذهن لتنشيطه وتشجيعه وأن تقدم له النصيحة الطيبة التى لا يعنى سواها بتقديمها وأن تنجيه من ملال الحرفة بما تتبادله معه من حديث ذكى طريف إن لم يجده فى بيته ذهب إلى النوادى باحثاً عنه فيها . وهى أم مكلفة بأن تدخل إلى نفس أبنائها الأفكار العامة الأولى ذات الأثر الدائم مدى الحياة . فهى من أجل ذلك ولتحسن صنعا يجب أن تكون أذكى بكثير من الرجل وأن تصل من العلم إلى استغلال كل ما يحتويه هذا الذكاء وكل ما كان ممكناً أن يؤديه) .

هذه الكلمة من أميل فاجيه نقدمها ليرى القارئ إلى أى حد يريد أكابر الكتاب أن تصل المرأة . وهى كلمة كتبت فى سنة ١٩٠٩ أى قبل نشوب الحرب العالمية بخمس سنوات . أما بعد إذ رأى العالم ما قدم النساء من جليل الخدم للإنسانية فى حرب دامت رحاها دائرة مدى سنوات أربع بلا انقطاع ولا هدنة ولا ملال فقد أصبحت كلمة فاجيه أكثر من أن توصف بالاعتدال واعترفت الأمم للنساء بحق التقدم حتى فى السياسة إلى مصاف الرجال .

لكن روسو يرى ذلك هذراً وهزواً . إن المرأة لم تخلق للعلم ولا للحكمة ولا للتفكير ولا للفن ولا للسياسة . وإنما خلقت لتكون أمًّا تغذو أطفالها بلبنها وتتعهد ضعفهم بحسن عنايتها وتسلمهم من بعد ذلك للأب أو للمربى يعنى بهم على نحو ما توحى به الطبيعة . وترجع هى للقيام بوظيفة الأمومة فتضع وترضع وتتعهد لتعود فتضع وترضع وتتعهد من جديد . وهى وأطفالها دائماً فى عنق الرجل يقوم

عليهم ويكد لهم ويربيهم ويهيؤهم للحياة بحسب الإلهام الطبيعى .

إذن فالعانس والأرملة ومن نكبت بزوج آخر : كل أولئك لا يدخلن فى حساب روسو . وربما كان جوابه إذا سئل عنهن إنهن خرجن على نظام الطبيعة فلا مكان عنده لهن .

وما دامت الأمومة هى الوظيفة الطبيعية للمرأة ثم ما دامت فى عناية الرجل وقوامته . وما دامت الطبيعة قد جعلت بذلك بينهما من الفروق ما يجعل الكلام فى المساواة بينهما سخافة مضحكة . ما دام ذلك « فإن المرأة الكاملة والرجل الكامل لا ينبغى أن تتشابه أذهانهما إلا كما تتشابه وجوههما .

« والجنسان فى اجتماعهما يعملان للغرض المشترك ولكن لا على طريقة واحدة . ومن هذا الخلاف ينشأ الفرق الأول المميز للعلاقات الخلقية بين واحد الجنسين والآخر . فيجب أن يكون أحدهما ناشطاً قوياً والآخر مستسلماً ضعيفاً كما يجب أن يريد أحدهما ويقدر على حين يكفى الآخر بعض الشىء من المقاومة .

« ومتى استقر المبدأ ترتب عليه أن المرأة خلقت خصيصاً لتسر الرجل فإذا وجب على الرجل أن يسرها بعد ذلك فتلك ضرورة أقل ظهوراً . فإنما فضل الرجل فى قدرته وهو إنما يسر المرأة بقوته » .

وما دام هذا الاختلاف الطبيعى قائماً فمن خطل الرأى سلوك سبيل واحدة فى تربيتهما . إنما التربية تنمية الملكات الغريزية التى أوجدها القدر لملاءمة الوجود ووجود المرأة ليس هو وجود الرجل فملكاتهما الغريزية تختلف وإذن فيجب أن ينمى فى كل ما يعاونه على الحياة التى أعد لها والتى تختلف جد الاختلاف عن حياة الآخر .

« بل إن كل الملكات المشتركة بين الجنسين ليست موزعة بينهما على نسبة واحدة وهما فى المجموع يتعاوضان . فالمرأة أحسن كامرأة منها كرجل . وهى كلما أرادت أن تتمتع بحقوقها كان لها الفضل . فإذا أرادت أن تغصب حقوقنا بقيت دوننا . ولن يستطيع الإنسان أن يعترض هذه الحقيقة العامة إلا بمستثنيات يعتمد عليها أصحاب المصلحة من أنصار الجنس الجميل » .

وإنك لترى مصداق ما تقدم فيما تلاحظه من ميول كل من الجنسين أول ما يبدأ التمييز عندهما . فترى الفتاة ميالة للزينة تمضى كل نهارها حول عروستها .

تغير مئات المرات من ملابسها وتدأب فى البحث عن صور جديدة من زينتها سواء أكانت هذه الصور قبيحة أم حسنة . وهذه العناية التى تبذلها الفتاة فى تجميل لعبتها ليست إلا مظهراً لكمين ما فى نفسها من ميل للزينة لا تستطيع رده على نفسها فتخلعه على تلك اللعبة التى تتصرف فيها . فإذا بلغت من العمر حداً يجعلها تقدر على تجميل نفسها رأيت عنايتها وقد انصرفت رويداً رويداً عن عروستها ورأيتها أنفقت كل ما أوتيت من ذكاء وجهد لتبدو فى أجمل مظهر تمكنها الطبيعة من الظهور فيه .

وقد يسهل عليك بعد ذلك أن تستنتج ما تقدم من أن المرأة خلقت لمسرة الرجل ، كما ترى أن وجود المرأة خاضع لحكم الجماعة عليها لا لاعتباراتها الخاصة ولا لآثارها الشخصية . فهى مهما وجدت فى تجميل ذاتها من السخرية ومن إضاعة الوقت لا تستطيع أن تهمل جمالها ، وإلا بدت فى حال من الكآبة يمجها معها الناس جميعاً . وهى كلما أضافت إلى جمالها زاد الناس إعجاباً بها وتقديراً لها .

إلا أن وظيفة الأمومة هى الوظيفة الطبيعية للنساء جميعاً . وهى لا شك فى حاجة إلى تجميل المرأة نفسها حتى يعنى بها الرجل الذى أعدته الطبيعة لها . ولكن ثمة إلى جانب كمال الجمال ما تحتاج إليه حياة الزوجية والأمومة من معارف . وإدارة البيت ليست بالأمر الهين لذاته . فيجب أن يعنى بصحة المرأة حتى تنشأ قوية على احتمال مشاق الأمومة كما يجب أن تتعلم ما تحتاج إليه تلك الإدارة من معلومات ومن صنائع . فإذا أتقنتها تعين عليها أن تعرف الموسيقى والرقص تسر بهما زوجها وتدخل بهما إلى بيتها من معانى النعمة ما لا غنى عنه .

لكن التعليم الذى يريده روسو للمرأة لا يتعدى درجات المعرفة الأولية البسيطة . لقد رأيته فى تربية أميل يطعن على الكتب وعلى العلوم وعلى الفنون ويريد فتاه شاباً قوى البناء سليم الجسم حسن الإدراك قديراً على معرفة الأشياء وحسن تقديرها من غير حاجة لدرس علم خاص أو التبحر فى بحث شىء من الأشياء . وقد رأيته يعتبر المرأة مخلوقاً ضعيفاً مستسلماً وجد فى الحياة متاعاً للهو الرجل ومسرته . وخلق ضعيف العقل كما خلق ضعيف البدن . فهو لن يرى بعد ذلك فى تعليم المرأة إلا سخافة وسخرية .

« يقولون : إنه لا يجدر بالرجل ذى التربية أن يتصل بامرأة لا تربية عندها . . إلا أن فتاة بسيطة فجة التربية لأحب إلى من فتاة عالمة ذات ذكاء وخاطر تجىء فتقيم فى بيتى سوق أدب تجلس هى على رأسه . فإنما الفتاة ذات الذكاء والخاطر وباء زوجها وأبنائها وأصدقائها وخدمها ووباء الناس جميعاً . ذلك بأنها وهى فى سماء نبوغها الرفيع تحتقر كل واجباتها كامرأة وتبدأ تريد أن تكون رجلا . فينظر الناس إليها بعين الزراية ويوجهون إليها مر النقد عن حق . ولن يسلم إنسان من النقد ما خرج عن الدائرة التى هيأ القدر له المكان فيها ليدخل إلى دائرة لم يتهيأ بها . وكل هاتيك النسوة ذوات الملكة والموهبة الكبيرة لا احترام لهن إلا عند الغفل البلهاء . فالناس يعرفون دائماً من هو الفنان أو الصديق الذى يمسك بالقلم أو بالريشة حينما يعملن . فإذا كان للمرأة مواهب حقة دنس غرورها مواهبها . فإنما كرامة المرأة أن تبقى مجهولة ومجدها فى احترام زوجها ومسراتها فى سعادة أسرتها . وإنى إليك أيها القارئ أحتكم . إذا أنت دخلت إلى غرفة امرأة فأى الأمرين أحسن عندك أثراً وأدعى بك لاحترامها . أن تراها عاكفة على أعمال جنسها معنية بأمور بيتها محاطة بملابس أبنائها أو أن تلقاها تكتب الشعر على منضدة زينتها تحيطها كتب من كل الأنواع وتذاكر نقشت على كل لون ؟ ألا لو كان الناس جميعاً عقلاء لوجب أن تبقى كل فتاة متعلمة فتاة طول حياتها » .

وما للمرأة والعلم . « إن البحث وراء الحقائق المطلقة والنظرية ووراء قواعد العلم وكل ما يرجى لنشر الأفكار ليس من خصائص المرأة . إنما يجب أن تقتصر معلوماتها على ما يحتاج إليه العمل . وهى المكلفة بتطبيق ما يجده الرجل من المبادئ . أما خواطر النساء فيما لا يمس واجبهن فيجب أن تنصرف إلى معرفة الرجال أو إلى المعلومات الرقيقة التى تتعلق بالذوق وتقتصر عليه . وذلك بأن مظاهر النبوغ تتعدى مدى مراميهن ، وأن ليس لديهن من الدقة والانتباه ما يكفل النجاح فى العلوم الدقيقة . كذلك فإن المعارف الطبيعية أو المادية هى من متناول أكثر الجنسين عملا وأكثرهما مراناً وأحوطهما بالأشياء نظراً وأشدهما قوة وأقدرهما لقوته استعمالا يزن بها ما بين الكائنات المحسة وقوانين الطبيعة من صلات وروابط » .

ليس للمرأة من العلم إذن فائدة . والمرأة مخلوق أوجده القدر للهو الرجال ومسراتهم فيجب لذلك أن تعنى بدرس الرجال . ويجب أن تتفنن فيما يجلب للرجال

المسرة ويملق ذوقهم ويجب أن تنظر للأشياء وأن تتصل بها وأن تمارسها بمقدار ما يرضى الرجال – فإذا هى نجحت فى ذلك فقد أدت الواجب الذى خلقت له . وأما إن هى تعدته وجعلت لنفسها شخصية مستقلة وأرادت أن تتصل بالعالم والكائنات عن غير طريق الرجال فقد ضلت سواء السبيل .

وماذا يرضى الرجال . إن الإجابة عن هذا السؤال غير ميسورة . لأن للرجال فى كل زمان ومكان ميولهم وأذواقهم وشهواتهم . وقد وهبت الطبيعة المرأة ملكة لا تراها عند الرجل إلا لدرجة قليلة . تلك هى دقة الملاحظة . فإذا أنت رضت هذه الملكة فيهن من نعومة أظفارهن رأيتهن سريعات إلى معرفة ميول الرجال وأذواقهم وشهواتهم سريعات إلى إرضاء هذه الميول والأذواق على طريقة تبلغ من الدقة عند المرأة الكاملة ما يخلق بينها وبين الرجل أرق العواطف وأرق الإحساسات

وما دام رضا الرجل هو غاية تربية المرأة فيجب أن تسلك معها سبيلا غير الذى سلكته فى تكوين أميل . وقد رأيت أن أميل لا يجب أن يكون ثرثاراً وأن يقصد إلى الفائدة من عمله . ورأيت أنه يجب عليك لتسكت الفتى أن تسأله : ما الفائدة من ذلك . أما الفتاة فلا يصح إسكاتها . إنما تسأل عن الأثر الذى يحدثه كلامها . ويجب أن تعود الكلام الرقيق والرد الدقيق وحسن العبارة وجميل الإشارة وما إلى ذلك مما يجذب قلب الرجال فيكرسون حياتهم لفخر المرأة المحبوبة ولسعادتها .

كذلك « ما دام سلوك المرأة خاضعاً لرأى المجموع فيجب أن تخضع عقيدتها للسلطان العام بأن تعتنق كل فتاة دين أمها وكل امرأة دين زوجها . ولو أن هذا الدين الذى تعتنقه كان لغواً فإن خضوع الأم والأسرة طائعين لحكم الطبيعة يمحو ما فى الخطأ من ذنب عند الله » .

وليس القصد من اعتناق الفتاة دين أمها أو زوجها أن تجعل الدين موضع بحثها وإنما القصد أن يحل محل العقيدة منها لهدايتها وإرشادها . « ويجب لذلك أن تحتفظ ببناتك فى أضيق حدود قواعد الخلق وأن تدخل إلى نفوسهن أن ليس لشىء مما نتعلمه فائدة إلا ما دلنا على الوسيلة لفعل الخير ، وألا تجعل من بناتك متكلمات منطيقات وألا تعلمهن من أمور السماء إلا ما يفيد الحكمة الإنسانية وأن تعودهن الشعور دائماً بأنهن بمرآى من الله ومسمع ، وأن يتخذنه شهيداً على

أعمالهن وأفكارهن وفضائلهن وطهرهن ، وأن يعملن الخير غير مترددات لأنه يحبه ، وأن يحملن الضر قانتات فلهن عنده جزاؤه ، وأن يكن فى كل يوم من أيام حياتهن مطمئنات لما قدمن وأن هن تقدمن له . تلك هى الديانة الحقة ، وهى وحدها البعيدة عن كل غلو وضلال وتعصب ، ومهما دعا الداعون إلى ما يحسبونه أرقى من ذلك وأسمى فهى عندى الوحيدة التى أقر بها وأعترف » .

لكن روسو كان قد رأى ألا تعرض على أميل أية عبارة عن الدين قبل الثامنة عشرة من عمره . وكان قد علل ذلك بأنه قبل هذه السن لا يستطيع فهم قواعد الدين . فكيف به وهو يرى المرأة أضعف من الرجل عقلا يسارع إلى تلقينها عقيدة أمها وزوجها ويطالبها بالوقوف عندها والإيمان بها .

وقد رد روسو على هذا الاعتراض الواضح بقوله : « من الجلى أنه إذا قصر باع الذكران من الأطفال عن أن يكونوا لأنفسهم فكرة صحيحة عن الدين فأحر بالفكرة أن تكون فوق متناول تصور الفتيات . ولنفس هذا السبب أرى أن أحدثهن عنها فى سن متقدمة . ذلك بأنه لو وجب أن ينتظر بهن حتى يستطعن مناقشة هذه المسائل العميقة مناقشة ضيقة فقد يبقى الإنسان أبد الدهر ثم لا تحين هذه الفرصة » .

على أن الاعتراض السابق ورد روسو عليه يثيران مسائل شتى . فكيف يتأتى أن تعرض مسائل الدين على الفتاة وتحجبها عن الفتى . وهو إذا سمع أمه تخاطب أخته عن الدين أو رآهما تصليان لم يستطع أن يمنع نفسه من النظر فيما يفعلان فإن أنت حاولت منعه وإلزامه الطاعة فإنك تدخل إلى نفسه أحد إحساسين : إن الدين من السخافات التى وضعت للنساء فلا يصح الأخذ به ، أو أن فى متناول أخته ما لا يستطيع هو إدراكه . وفى الحالين تكون قد هيأت متاعب للمستقبل قد لا يسهل اجتيازها .

لكنك إذا غرست قواعد الدين فى نفسه من نعومة أظفاره عرضت نفسك إلى خطر آخر فهو إما أن يتعصب لما عرفه من الدين لأنه عرفه ولما يستطع فهمه . وإما أن يتزل عنه يوم يبلغ أشده أن يرى فيه شيئاً لا يقره عقله .

ومن هنا تنشأ صعوبة يتخطاها روسو ولا يعيرها كبير اعتبار . وهى عندنا صعوبة خلقها روسو بوضعه المرأة فى مستوى منحط عن مستوى الرجل بكل هذه

المراحل . ولو أنه لم يتأثر بادعاء السيدات دعيات الأدب والفلسفة فى عصره ونظر فى الأمر نظرة أكثر رفقاً وأعلى حكمة ولم يعمه عشقه النساء لرأى أن الفارق بين المرأة والرجل ليس بمقدار ما خيل إليه وأن اختلاف وظائفهما فى الحياة التناسلية لا يقتضى كل هذا التفريق فى طرائق تربيتهما . وهو ما دام قد قرر وجوب تربية الشاب والفتاة تربية جسمية متينة واعترف بضرورة إعدادهما لمعرفة ما فى العالم فإن أدوات التربية الجسمية كأدوات المعرفة متعادلة للجنسين . وإنما هو استعدادهما الذى يوجه كلا بعد ذلك فى طريقه .

وهل يحسب روسو أن الفتيان جميعاً من نوع واحد فى الاستعداد . أو لو عالج غيره الموسيقى إلى سن الأربعين كنت تراه يفشل فشله . وهل من يعالج التحرير والأدب من نعومة أظفاره ينجح نجاحه وهو لم يعالجهما إلا بعد الأربعين . ولكن روسو عاش فى عصر كان للمطلق وجود فيه . فبحث هو عن المطلق من ناحيته وخيل إليه أنه وجده فى تلك الأفكار الضئيلة الضيقة التى شغلته مدى حياته فنسج حولها من بدائع الأدب ما بقى ليخلد على حين تلاشت تلك الأفكار مع تلاشى المطلق أمام تقدم النظر العلمى .

من هذا المطلق اعتقاده أن المرأة خلقت لمسرة الرجل ولهوه . وأنها لذلك مكلفة أن ترتب حياتها لتنال رضاه . ولسنا ندرى مبلغ صحة هذا الرأى أمام ما أثبته العلماء من أن الذكور من أنواع الحيوان تسعى لاستغواء الإناث برائع جمالها . ويشتد بها هذا السعى إبان فصل النتاج . فذكر الطير يباهى بريشه وبرخيم صوته . وذكر الوحش يباهى بقوته وجماله . وتضعف الأنثى أمام الاستغواء وتخضع له ويكون التناسل نتيجة هذا الضعف والاستغواء .

على أن روسو لم يلاحظ شيئاً من هذا . بل أمعن فى رأيه من أن المرأة متاع الرجل . وأن الفتاة يجب لذلك أن تراض على الخضوع من أول أمرها . « فإنما الخضوع شأن النساء بحكم الطبيعة حتى ليشعر الفتيات إنما خلقن والطاعة أول واجباتهن . وإذن فلا حرج على المربى فى إكراههن وقمع حريتهن . ولا جناح عليه إذا عاقبهن . وإن من نتائج هذا القمع ما نرى فى النساء من مرونة هن فى حاجة إليها فى حياتهن . فهن دائماً فى قوامة رجل وهن دائماً طوع حكم الرجال . وليس لهن أن يضعن أنفسهن فوق حكم الرجال » .

ومجمل الأمر عند روسو أن المرأة تابع من توابع الرجل يجب أن تأخذ الصورة التى ترضى الرجل ، وروسو يجعل نفسه مقياس هذا الرجل الذى يجب أن ترضيه كل امرأة . فهو يضع أمام نظره ما مر به من تحكم النساء فى أمره وتسلطهن عليه وعجزه أمامهن ويريد من المرأة التى تربى على ما يريد ألا تكون مثاراً لشىء من هذا التحكم ولا ذلك السلطان وألا تعرض الرجل أياً كان لما تعرض له روسو من ألوان الألم والعبث .

وقد مر بك ما لاقاه روسو من النساء . مر بك مبلغ حبه لهن وعجزه أمامهن ومبلغ استخفافهن به مع عطفهن عليه استخفافاً وعطفاً كان ينتهى به إلى كراهيتهن والفرار منهن واحدة بعد الأخرى . فهو لم يطق مدام دبناى ولا مدام دودتو ولا مدام دلكسمبور ولا واحدة من السيدات ذوات النبل والكرم وصاحبات الفضل عليه . كلا بل لم يطق « أمه » وخليلته مدام دفارانس . لأن هاتيك جميعاً كن متعلمات وكن يجعلن من حياته موضعاً للعبث به . لذلك يجب أن ينتقم لنفسة من جنسهن . ويجب أن تكون النساء جميعاً من صنف تريزلفاسير جهالة وغباء لأن تريزلفاسير وحدها هى التى استحقت تفضيل روسو على رغم ما كان يجده فى غبائها وبلهها من عجب وبرغم ما كانت تفتن فيه أمها من أساليب الخداع للاحتيال على سلب ما يكسبه هذا البائس العظيم من المال القليل .

فأنت ترى أن روسو كان ذاتياً صرفاً حين معالجته موضوع تربية المرأة . وشأنه فى ذلك شأن المغرمين بالنساء جميعا. فكل مغرم بالنساء إلى حد الهيام ، أو إن شئت فقل مع أميل فاجيه إن الكثرة المطلقة من هؤلاء المغرمين الهائمين ليسوا من أنصار النساء . فهم لا يريدون أن تحصل المرأة على أى صفة من صفات الرجولة وإنما يريدونها مخلوقاً خاضعاً متعلقاً بهم ضعيفاً الضعف كله محتاجاً لأن يسر الرجل غير محتاج إلا لأن يسره . وذلك أمر طبيعى ، فالمغرم بالنساء إنما يقصد إلى غاية واحدة هى امتلاك المرأة امتلاكاً بالفعل . وامتلاك المرأة عسير إذا كانت ذكية عالمة عارفة بشئون الحياة قادرة نفسها حق قدرها شاعرة بأن لها وجوداً مستقلا عن وجود الرجل وإنها فى حل من أن تنافسه فى الحياة إذا هو أراد أن يدخل معها ميدان المنافسة . مثل هذه المرأة القوية النفس لن تسمح لأحد بامتلاكها . بل لعلها تسعى هى لامتلاك الرجل أو لعلها تريد أن تساويه وأن تكون وإياه فى مستوى

واحد فهى صاحبته وصديقته ما دام وفيًّا مخلصاً وما دام بينهما من تبادل الحب والاحترام ما يديم المحبة والصداقة ، وهى غنية عنه غير مبقية عليه إذاانقطع الوفاء أو ذبل الإخلاص . وما كان لهذا المدنف المدله أن ينصح الناس ليجعلوا من المرأة هذا المخلوق العسير الامتلاك . ولا كان له أن يخلق أمام أهوائه وشهواته صعاباً وعقبات قد لا يتغلب عليها وبخاصة إذا كان حييًّا عاجزاً ضعيف الحيلة بمقدار ما كان روسو . فلتكن المرأة إذن جاهلة ساذجة ولتكن رقيقة مطواعة حتى يتيسر لهذا الأحمق روسو أن يمتلكها وحتى يأمن عبثها به وحتى يستطيع إن أراد أن يحبسها فى صومعته فلا تشكو الحبس ولا تطلب الحرية التى أباحها الله للناس ليتمتعوا باستجلاء محاسن خلقه وليشاركوا الوجود مشاركة حرة تزيد حياتهم وحياة الوجود قوة ونماء .

* * *

أترى الناقد لرأى روسو فى هذه المسألة يرى أن يؤخذ فى تربية الفتاة بما يؤخذ به فى تربية الفتى . أتراه يذهب إلى وجوب تدريب الفتاة على جلاد الوجود حتى إذا صارت امرأة كان لها أن تقف من الرجل الموقف الذى تختاره هى وألا تخضع لما يقسرها الرجل عليه . لعل الجواب ليس من السهولة بحيث يكتفى فيه عن نقد رأى بالأخذ بنقيضه . وهل كان إنكار الشىء اعترافاً بضده إلا عند العقول الساذجة البسيطة . إن إنكارك على شىء أنه أسود لا يقتضى أن يكون هذا الشىء أبيض . فإن بين السواد والبياض من مختلف الألوان ما يجعل التحديد عسيراً وإن كان الإنكار يسيراً . ونفيك أن أمراً وقع ليلا لا يقتضى حتماً أنه وقع نهاراً . فساعات السحر وساعات الشفق تشارك الليل فى ظلمته والنهار فى نوره . فإذا كان ذلك هو الشأن فى أمر المرئيات التى تقع تحت حِسّنا فما بالك بغير المرئيات من متناول الأفهام . بل ما بالك بمسألة كالتربية ليس يكفى فيها الحس وليس يكفى فيها التفكير ولا تقطع فيها التجربة برأى ما دام معنى التربية البلوغ بالإنسان إلى خير حال يتلاءم فيها مع الوجود الذى خلق فيه ملاءمة تجعله أكثر ما يمكن متاعاً بالوجود وسعادة فى الحياة من غير أن يكون متاعه وسعادته حملا على الوجود ولا عيالا على أهل هذا الوجود .

ما بالك بمسألة كالتربية يختلف النظر إليها من زمن إلى زمن ومن قطر

إلى قطر . تتأثر بالطقس وبالجو وبالمصادفات السعيدة أو التعسة التى توجد فيها أمة من الأمم بل بالمصادفات السعيدة أو التعسة التى يوجد فيها الفرد . أليس من الحق أن يقال فى التربية ما قيل فى الطب : ليس ثمة أمراض وإنما ثمة مرضى . كذلك ليس ثمة تربية وإنما ثمة أشخاص يجب تربيتهم .

من المتعذر إذن أن تضع قاعدة مطردة للتربية عامة وأصعب منه أن تضع قاعدة لتربية الفتاة . ذلك بأن المرأة كجنس لم تصل بعد إلى موقف محدد فى أمر ما لها وما عليها . وإذا كان الرجال لا يزالون يتوقعون صوراً من التطور فى شئونهم فهم يرسمون لهذه الصور حدوداً وهم يقدرون لهذه الحدود مواقع . وفى مقدور الفكر أن يتوسم إمكان حدوث هذه الصور أو استحالتها . وأن يتوسم مدى هذا الإمكان وأن يرتب عليه نتائجه . ولكن التطور فى شأن المرأة لا يزال على حال تجعل قرار الفكر عنده عسيراً . لأن الفكر لا يقر على غير مستقر إلا حدساً . فإذا رأيت الكتاب يرسمون قواعد لتربية المرأة فلا تحسبنهم واقفون عندها إلا الزمن الذى يقتضيه انتقال المرأة إلى طور جديد . وقد يطول هذا الزمن وقد يقصر . لكن عسيراً على كل حال أن تعرف ما ستكون علاقة المرأة بالرجل فى هذا التطور الجديد . وعلاقتها بالرجل وحظها إلى جانبه من الحرية ومقدار تعلقها به أو استقلالها عنه ، ذلك هو ما يجعلها توجه تربيتها إلى خير ما يصلح للرجل ولها .

ونحن نحسب مع ذلك أن خير ما يضمن تطور المرأة إلى الخير أن تربى حرة مطلقة الإطلاق كله . فهى إذا عودت مكافحة الوجود طفلة استطاعت كفاح الاجتماع امرأة . وهذه القوة النفسية التى أراد روسو أن يمتلئ بها فؤاد أميل يجب أن تغرس فى نفس الفتاة . لأن المرأة أضعف بنية من الرجل . وكل أنثى أضعف بنية من الذكر . فهى فى حاجة لأن تكون قوية النفس حتى لا يجتمع عليها ضعفان . ضعف الجسم وضعف الفؤاد .

لقد انصرفت جهود الرجال فى الماضى ليزيدوا المرأة ضعفاً وليشعروها بأن لا سبيل لسعادتها ولطمأنينتها فى الحياة إلا عطفهم عليها وبرهم بها . وهم يبيعونها هذا البر وذلك العطف فى مقابل خضوعها لهم . لذلك فسدت ملكاتها ولجأت إلى الخديعة والحيلة . ولو أنهم جعلوها تدرك دائماً أن قوة النفس تعدل قوة الجسم لكان لها أن تقف وإياهم فى ميدان الحياة تعاونهم أضعاف ما تعاونهم

اليوم – فإذا أرادوا الاعتداء عليها جزتهم عن العدوان عدواناً . وليس أحفظ للسلام من تعادل القوى . كما أنه ليس أحفظ للدولة من العدل بين أفرادها .

انظر كم بلغ فساد المرأة بسبب عسف الرجل بها وإضعافه نفسها إلى حد انحطت معه عن الحيوان . إن أنثى الحيوان لا تسلم نفسها للذكر إلا لتلد . أما المرأة فتسلم نفسها للرجل لتنال عطفه . وأنثى الحيوان لا تتملق الذكر ولا تتزين له ، لأن نفسها أقوى من شهواتها . وذكر الحيوان هو الذى يملق الأنثى ويتزين لها فينفش شعره أو ينشر ريشه أو ينشدها أغانيه الرخيمة . أما المرأة فهى التى تملق الرجل وتتزين له وهى التى تحرك فيه ضعف نفسه ليعطف على ضعفها .

أما تعليم المرأة فأمر يرجع الرأى فيه إلى البيئة التى تنشأ فيها وإلى مبلغ حاجاتها من العلم . ولست أدرى لم نحصر الفتاة فى دائرة ضيقة من المعارف . إنما العلوم التى يتلقاها الناشئ إبان شبابه وسيلة لكشف ما فى الحياة من جمال ولاستغلال ما فى الوجود مما يزيد الحياة قيمة . فلم لا نضع هذا السلاح فى يد الفتاة . لم لا نمهد لإدراكها السبيل لكشف مختلف ما فى الحياة من صور الحياة . وهى بعد ذلك متوجهة حتما إلى ما تسوقها طبيعتها الخاصة إلى التوجه له من هذه الصور . وما دمت قد حصنت نفسها وأزحت عن ذهنها ذلك الستر الذى يحجب ما كشف عنه العلم فقد أيقنت أنك لم تفعل إلا خيراً .

قد يكون صحيحا أن المرأة تدرك من العالم ما لا ندرك . ويفوتها منه كثير مما ندرك . لكن العلم الذى كشف من شئون العالم لم يكن من وضع الرجال وحدهم . ولم يكن من وضع النساء وحدهن . وإنما هو شركة لكل فيها نصيب . ولكل منها حظ . وقد تفيد امرأة ما لا يفيده رجل . وقد تكون المرأة التى تكتب عن تربية المرأة أكثر توفيقاً من روسو إذا هى أفادت من العلم ما يمهد لها سبيل التفكير والكتابة .

على أنا وإن نقدنا رأى روسو فى تربية المرأة فإنا لانمل تكرار ما سبق لنا ذكره . . إن فى صحائف (صوفى) من الأوصاف والملاحظات ما يستحق الإعجاب . وإن الأسلوب فيها لهو دائما أسلوب روسو . ذلك الأسلوب الموسيقى البالغ فى تجاوبه حدود الإبداع .

* * *

وظهر كتاب التربية فكان ظهوره بدء متاعب روسو وشقوته . لاقى بسببه من العنت ما مر بك فى الجزء الأول من هذا الكتاب . قرر برلمان باريس القبض عليه فاضطر للفرار من فرنسا . وأصدرت حكومة جنيف مثل هذا القرار فى شأنه . وصادره السوربون وطعن عليه أسقف باريس وحرمّه البابا . وكان فراره من فرنسا مقدمة حياة التجوال التى عاد إليها والتى انتهت به إلى الجنون ووقفت به على حافة هاويته .

وقد أعان روسو على الفرار من باريس ما كان باقياً لديه من بعض ما كسبه من كتاب العقد الاجتماعى ، وما أعانه به جماعة باللكسمبور. وفيما هو فى فراره وانتقالاته بين البلاد المختلفة فى سويسرا رد على أسقف باريس بكتاب وجهه إليه ، وعلى حكومة جنيف بخطابات الجبل . وسنعرض لهذه الردود وللعقد الاجتماعى وللاعترافات وللأحلام فى الفصول الباقية التى تضمنها الجزء الأخير من هذا الكتاب .